



للعلوم الشرعية

مجلة علمية دورية محكمة

العدد: ١٩٠ الجزء الأول السنة: ٥٣ محرم ١٤٤١هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

معلومات الإيداع

النسخة الورقية:

تم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية برقم ١٤٣٩/٨٧٣٦ وتاريخ ١٤٣٩/٠٩/١٧ هـ

الرقم التسلسلي الدولي للدوريات (ردمد) ١٦٥٨-٧٨٩٨

النسخة الإلكترونية:

تم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية برقم ١٤٣٩/٨٧٣٨ وتاريخ ١٤٣٩/٠٩/١٧ هـ

الرقم التسلسلي الدولي للدوريات (ردمد) ١٦٥٨-٧٩٠١

الموقع الإلكتروني للمجلة:

http://journals.iu.edu.sa/ILS/index.html

ترسل البحوث باسم رئيس تحرير المجلة إلى البريد الإلكتروني:

Es.journalils@iu.edu.sa

قواعد النشر في المجلة(*)

- أن يكون البحث جديداً؛ لم يسبق نشره.
- أن يتّسم بالأصالة والجدّة والابتكار والإضافة للمعرفة.
- أن لا يكون مستلًّا من بحوثٍ سبق نشرها للباحث.
- أن تراعى فيه قواعد البحث العلميّ الأصيل، ومنهجيّته.
- أن يشتمل البحث على:
  - صفحة عنوان البحث باللغة العربية
  - صفحة عنوان البحث باللغة الإنجليزية
  - مستخلص البحث باللغة العربيّة
  - مستخلص البحث باللغة الإنجليزيّة
  - مقدّمة
  - صلب البحث
  - خاتمة تتضمّن النّتائج والتّوصيات
  - ثبت المصادر والمراجع باللغة العربية
  - رومنة المصادر العربية بالحروف اللاتينية في قائمة مستقلة.
  - الملاحق اللازمة (إن وجدت).
- في حال (نشر البحث ورقياً) يمنح الباحث نسخة مجانية واحدة من عدد المجلة الذي نُشر بحثُه فيه، و (١٠) مستلات من بحثه.
- في حال اعتماد نشر البحث تؤول حقوق نشره كافة للمجلة، ولها أن تعيد نشره ورقيّاً أو إلكترونيّاً، ويحقّ لها إدراجه في قواعد البيانات المحلّيّة والعالمية – بمقابل أو بدون مقابل – وذلك دون حاجة لإذن الباحث.
- لا يحقّ للباحث إعادة نشر بحثه المقبول للنّشر في المجلّة – في أي وعاء من أوعية النّشر – إلاّ بعد إذن كتابي من رئيس هيئة تحرير المجلة.
- نمط التوثيق المعتمد في المجلة هو نمط (شيكاغو) (Chicago).

(*) يرجع في تفصيل هذه القواعد العامة إلى الموقع الإلكتروني للمجلة:
http://journals.iu.edu.sa/ILS/index.html

محتويات العدد

دعاءُ الكافرين ربَّ العالمين في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

Prayer of the disbelievers to God Lord of the worlds in the Holy Quran
A Subjective Study

إعداد:

د. عبدالله بن عيدان بن أحمد الزهراني

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن بكلية الشريعة والأنظمة

بجامعة الطائف

البريد الإلكتروني: Dr.Ab.Eidan@gmail.com

المستخلص

يعتني هذا البحث بدراسة أدعية الكافرين اللهَ ﷻ التي ذكرت في القرآن الكريم.

وأهداف هذا البحث: دراسة الآيات التي ذُكِرت فيها أدعية الكافرين اللهَ تعالى في القرآن الكريم، سواء ما كان منها في الدنيا، أو في الآخرة، والدعوات التي يجيبها الله منها، والحِكم التي لأجلها تُجاب بعض أدعية الكافرين.

وقد اعتمد منهج البحث: على الدراسة الموضوعية للآيات التي ذُكِرت فيها أدعية الكافرين اللهَ تعالى في القرآن الكريم، وذلك بجمع الآيات ثم توزيعها على مطالب البحث، والنظر بعد ذلك في أقوال المفسرين حولها، ثم الخروج بنتائج حول هذه الأدعية المذكورة.

وأهم النتائج التي تم التوصل إليها في البحث: أنّ دعاء الكافرين اللهَ تعالى أكبر دليلٍ على ضعفهم وشدة حاجتهم وافتقارهم لعنايته سبحانه، وأنّ في دعائهم لربّ العالمين إقراراً منهم بربوبية الله جَلّ وعلا، وهذا الإقرار يفرض عليهم الإقرار بألوهيته، وأنّ الكافرين إنما يخلصون للهِ الدعاء وقت حصول عذاب مفاجئ وسريع، أمّا حين تعرض لهم صنوف العذاب الدنيوي والابتلاء بأنواع المصائب فإنهم لا يتضرعون إلى الله ولا يدعونه، بل يستمرون في إعراضهم وغفلتهم وغرورهم، وأنّ الله تعالى قد يجيب بعض أدعية الكافرين في الدنيا إذا شاء، أمّا في

الآخرة فلا يستجيب لدعائهم، وأنّ إجابة بعض أدعية الكافرين في الدنيا ليس فيها دليلٌ على حُبِّ الله لهم أو رضاه بكفرهم، وإنما يكون في إجابته لدعائهم فتنةٌ لهم، أو عقوبةٌ، أو نعيمٌ معجّلٌ في الدنيا.

الكلمات الدالة (المفتاحية): القرآن – الدعاء- الكفر.

Abstract

This research deals with the study of the supplication of the disbelievers, which have been mentioned in the Holy Quran.

It aimed to study the Quranic verses in which the supplications of the disbelievers are mentioned, whether these supplications are in life, or in the afterlife, and the supplications that responded by Allah Al-Mighty.

The methodology of the research is based on the objective study of the verses in which the supplications of the disbelievers were mentioned in the Holy Quran, by collecting the verses and then distributing it to the sections of the research, and then reviewing the comments of the scholars on such supplications .

The most important results that have been reached in the search are that the supplications of the disbelievers is the greatest evidence of their weakness, the severity of their need and lack of the care of Allah Al-Mighty, (2) their supplication considers to a recognition of Allah's Lordship, (3) the unbelievers are only supplicating and praying to Allah sincerely only at the time of a sudden and swift punishment (4) Allah Almighty may answer some of the supplications of the disbelievers in life if he wishes, but this didn't mean that he loves them or to be satisfied with their religion and deeds, and the responding to their supplication may be a punishment for them or a bliss in the world.

Keywords:

the Holy Quran- Infidelity- Supplication

.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة السلام على سيد المرسلين، وإمام المتقين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإنّ شأن دعاء الله ﷻ عظيم، ومنزلته كبيرة، والله تعالى جواد كريم، يعطي السائلين، ويغيث الملهوفين، وينجي المكروبين، ويجيب دعوة المضطرين، ويقضي حوائج المحتاجين، إذا سألوه بإخلاصٍ ويقين.

ولا شك أنّ جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب المنافع إليهم ودفع المضار عنهم، ولا سبيل إلى ذلك إلا بسؤال الله تعالى ودعائه، وقد أولى القرآن الكريم أمر الدعاء عناية كبيرة، فأمر به، وحثَّ عليه، وبيّن فضله، وأثنى على أهله، وحذّر مِن تركه، وأشار إلى بعض آدابه، ووعد بإجابته، وذكر نماذج منه، ومن ذلك أنه استعرض أدعية الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأدعية المؤمنين، بل ولم يُغفِل ذِكْر أدعية الكافرين.

ولَمّا كان موضوع أدعية الرسل وأدعية المؤمنين في القرآن الكريم قد أخذ نصيبه من البحث والدراسة أحببت أن أستعرض أدعية الكافرين ربّهم التي وردت في القرآن الكريم، وأدرس هذا الموضوع دراسة تفسيرية موضوعية، وذلك بجمع الآيات التي جاء فيها ذِكْرُ بعض أدعية الكافرين اللهَ تعالى، ثم النظر في تفسير تلك الآيات التي وردت فيها،

وذلك ضمن سياقاتها التي وردت فيها تلك الأدعية، راجياً أن يتم استخلاص فوائد نافعة من استعراض تلك الأدعية التي ذكر الله تعالى في كتابه أنّ الكافرين سألوه إياها في الدنيا، أو إذا أقبلوا على الآخرة، أو سيدعونه بها في الآخرة، وقد جعلت هذا البحث بعنوان: دعاء الكافرين ربَّ العالمين في القرآن الكريم دراسة موضوعية.

سؤال البحث:

كيف استعرض القرآنُ الكريم أدعية الكافرين اللهَ تعالى في الدنيا والآخرة، وما الفوائد والأحكام المستنبطة من الآيات التي ذُكِرت فيها بعض أدعية الكافرين لرب العالمين؟.

أهمية الموضوع:

تظهر أهمية هذا البحث في النقاط التالية:

١- عِظَمِ مُتعلّقه، وهو دعاء الله تعالى، الذي تقرّرت مكانته الكبرى في الدين، وأنّ جميع الخلائق لا تستغني عنه، حتى الكافرين من عباده.

٢- كثرة استعراض القرآن لأدعية الكافرين اللهَ تعالى، مما يوجب الوقوف مع الآيات التي ذكرت تلك الأدعية، لاستنباط دلالاتها وفوائدها.

٣- فتنة بعض الناس بعدم معرفتهم لِلحِكَمِ التي قد تُجاب لأجلها بعض أدعية الكافرين، مما يُوجِب التعرّف على تلك الحِكم.

٤- وجود ما يوهم ظاهره التعارض بين الآيات التي ورد فيها أنّ الله أجاب دعاء الكافرين، والآيات التي قرّرت ضلال دعائهم، مما يوجب درء هذا التعارض الظاهري الموهوم.

أهداف البحث:

يمكن إيجاز أهداف هذا البحث فيما يلي:

١- التعرّف على أدعية الكافرين التي ذكر الله في كتابه أنهم يسألونه إياها في الدنيا أو الآخرة.

٢- بيان الأحوال التي يلجأ الكافرون فيها إلى ربِّهم فيدعونه، والأحوال التي يعرضون فيها عن مسألته.

٣- توضيح أهداف الكافرين من دعائهم الله، والمطالب التي يرجون إجابتها.

٤- التعرّف على الأدعية التي قد تجاب لبعض الكافرين إذا دعوا بها الله تعالى، والأدعية التي لا يمكن أن يجيبهم الله إليها.

٥- ذكر الحِكَم التي مِن أجلها قد يجيب الله ﷻ بعض أدعية الكافرين.

أسباب اختيار الموضوع:

إنّ الأسباب التي دعتني إلى اختيار هذا الموضوع تتلخص فيما يلي:

١- كون موضوع دعاء الكافرين اللهَ تعالى مما جاء ذكره في القرآن الكريم في مواضع متفرقة، وهذا يُلفِت الانتباه، ويوجب تدبّر الآيات التي استعرضت هذا الموضوع، واستنباط دلالاتها حسب الطاقة.

٢- عدم وجود كتابة متخصصة –حسب علمي- تعرّضت لموضوع دعاء الكافرين اللهَ تعالى في القرآن الكريم بالدراسة الموضوعية للآيات التي ذُكِر فيها بعض أدعيتهم.

٣- ورود ذكر أدعيةٍ للكافرين في الدنيا، وأدعيةٍ لهم إذا أقبلوا على الآخرة، وأدعيةٍ لهم في النار، مما يوجب معرفة ما الذي يجاب منها من غيره، حتى يتم تبيين ذلك للكافرين وغيرهم.

٤- رغبة المساهمة في دعوة الكافرين إلى الإسلام، وذلك ببيان فضل الله عليهم إن أجاب شيئاً من دعائهم، وتحذيرهم من الاغترار بكفرهم، وبيان أنّ هناك أوقاتاً وأحوالاً لا تجاب فيها دعواتهم أبداً.

الدراسات السابقة:

لا توجد دراسة موضوعية لدعاء الكافرين اللهَ تعالى في القرآن الكريم، كما أسلفت، وقصارى ما هنالك بحوث حول الدعاء في القرآن الكريم وآياته، أو بحوث فيها دراسة موضوعية للدعاء في القرآن الكريم عموماً؛ ولكنها لم تعط آيات أدعية الكافرين في القرآن الكريم حقها من البحث والدراسة، ومن تلك البحوث والدراسات ما يلي:

١. الدعاء في ضوء الكتاب والسنة، وهو بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في تخصص الكتاب والسنة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، من إعداد الباحث: جهاد محمد بونجا تنجونج، بإشراف الدكتور: العجمي دمنهوري خليفة، عام ١٤٠١هـ.

٢. الأدعية في القرآن الكريم، صيغها وخصائصها ودلالاتها، موازنة بما ورد في السنة النبوية، وهو بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في تخصص التفسير وعلوم القرآن، من جامعة أم القرى بمكة المكرمة، من إعداد الباحث: مرشد عالم مفيض الرحمن، بإشراف الدكتور: عبدالعزيز بن عبدالله الحميدي، عام ١٤١٦هـ.

وقد تحدث الباحث في الفصل الثالث من الباب الرابع من هذا البحث عن أدعية الكفار في الدنيا والآخرة، إلا أنّ حديثه كان مقتصرا على ذِكْر صيغ أدعية الكافرين الواردة في القرآن الكريم وآثارها

وفوائدها، ولم يتعرض لموضوع دعاء الكافرين في القرآن الكريم بالدراسة الموضوعية.

٣. الدعاء في القرآن الكريم أساليبه ومقاصده وأسراره، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في تخصص البلاغة والنقد من كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، من إعداد الباحثة: بهية حامد اللحياني، بإشراف الدكتور: يوسف عبدالله الأنصاري، عام ١٤٢٢هـ.

٤. الصور البلاغية في الأدعية القرآنية، وهو بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في تخصص اللغة العربية وآدابها من الجامعة الوطنية للغات الحديثة بإسلام آباد، من إعداد الباحث: نور زمان مدني، بإشراف الدكتور: كفاية الله همداني، عام ٢٠١١م.

٥. المفاهيم المستمدة من آيات الدعاء في القرآن الكريم ودلالاتها التربوية، وهو بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في تخصص أصول التربية الإسلامية من الجامعة الإسلامية بغزّة، من إعداد الباحثة: روضة سليم المدهون، بإشراف الدكتور: حمدان عبدالله الصوفي، عام ١٤٣٠هـ.

٦. آيات الدعاء في القرآن الكريم، دعاء الصاحين أهل الجنة الأبرار، ويليه دعاء الكافرين الأشرار أهل النار من الإنس والجن، تأليف

كل من: د. محمد محمود أحمد، ود. موسى الخطيب، طباعة مركز الكتاب للنشر، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

وهذا الكتاب تعرّض لذكر بعض أدعية الكافرين الوارد ذكرها في القرآن العظيم، ولكن في الكتاب نقص كبير، فقد اقتصر فيه مؤلّفاه على ذكر بعض أدعية الكفار في الدنيا؛ كدعاء كفار سبأ، وكفار مكة، ودعاء إبليس، كما أنهما عدّا من ضمن أدعية الكفار ما ليس منها؛ كذكرهم دعاءً لأصحاب الأيكة، والذي يظهر بعد النظر والتأمّل أنه لم يرد ذكر دعاء لهم في القرآن الكريم[1]، ومما يؤخذ على هذا الكتاب أيضاً أنه لم يُذكر فيه شيء من أدعية الكافرين في الآخرة، ولم تُبين فيه حقيقة إجابة أدعية الكفار، أو غير ذلك مما سيتضمنه هذا البحث بإذن الله تعالى.

(١) ذكر مؤلفا الكتاب في ص(١٥٣) منه، تحت الفصل الأول من الباب الثاني: "الدعاء الأول: لأصحاب الأيكة، قال الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨٧]"، فاعتبرا هذا دعاءً، وظاهر الآية يدل أنه سؤال لنبيهم شعيب عليه السلام أن يدعو هو اللهَ تعالى بما طلبوا، وهو طلبُ تحدٍّ وتعجيزٍ وتكذيبٍ منهم لنبيهم، "والمعنى: إن كنت صادقاً أنك نبيّ، فادع الله أن يسقط علينا كِسَفاً مِن السماء". الزمخشري، "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل". (ط٣، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ)، ٣٣٣/٣.

منهج البحث وإجراءاته :

بما أنّ هذا البحثَ دراسةٌ موضوعيةٌ للآيات التي وردت فيها بعض أدعية الكافرين اللهَ تعالى في القرآن الكريم، فقد قام هذا البحث على منهج التفسير الموضوعي، وذلك باتباع الخطوات التالية:

١- اقتصر هذا البحث على دراسة أدعية الكافرين اللهَ ﷻ التي وردت في القرآن الكريم، ولم يتم التعرُّض لدعائهم غير الله ﷻ سواء كان دعاء مسألة أم دعاء عبادة، لعدم قصد ذلك بهذا البحث.

٢- تم جمع الآيات التي ذُكِر فيها دعاء الكافرين ربّهم ﷻ، ثمّ محاولة ضم المتشابه منها في صيغة الدعاء ومؤدّاه تحت مطلب في أحد مباحث الخطة.

٣- جرت دراسة تفسير هذه الآيات بالرجوع إلى كتب التفسير، ثم بيان المعنى الإجمالي للآيات التي ورد فيها ذِكرٌ لبعض أدعية الكافرين، مع الإشارة إلى دلالات ألفاظ تلك الآيات واستعمالاتها، وهداياتها، في ضوء سياقاتها.

ومن الإجراءات المتّبعة في هذا البحث أيضاً:

١-إذا نقلت كلاماً من أحد المصادر بنصِّه، فإني أضعه بين علامتي تنصيص هكذا "..."، ثم أشير في الحاشية إلى مصدر هذا النص باسم الكتاب ومكان ورود النص منه بالجزء والصفحة، أمّا إذا استفدت الفكرة من بعض المصادر ولكني تصرّفت في النص بما

أراه مناسباً، فإني أشير في الحاشية إلى مصدر الفكرة والفائدة بقولي (ينظر)، أي أنّ النقل كان للمعنى دون الحرفية.

٢-حرصت على إيراد الآيات القرآنية برسم المصحف، ثم السورة ورقم الآية، وإذا ورد في بعض الآيات أكثر من قراءة فإني أشير في الحاشية إلى تلك القراءات ومن قرأ بها، إن كانت مما يترتب عليها اختلاف في المعنى.

٣-إذا ورد حديث نبوي في متن البحث فإن كان في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه، نظراً لصحتهما وتلقي الأمة لهما بالقبول، وإن كان في غيرهما عزوته إلى مصادره، ثم نقلت الحكم عليه وبيان درجته عند أهل العلم بالحديث، وكذا فإني أشرح بعض الكلمات الغريبة إن وُجدت في الحديث.

٤-إذا نقلت كلاماً من أحد المصادر ثم حذفت بعضه اختصاراً فإني أضع ثلاث نقاط أثناء النص المنقول هكذا"..."، دلالة على أنّ هناك جزءاً حُذِف اختصاراً، وإذا عزوت لمصدر فإني أذكر رقم الجزء إن وجد، ورقم الصفحة التي بدأ الاقتباس منها حتى ولو امتد ذلك الاقتباس إلى صفحات بعدها.

٥-لم أترجم لأحد من الأعلام خشية إثقال الحواشي بذلك، لا سيما أنّ أكثر الأعلام الواردة أسماؤهم في صلب البحث هم من المشهورين.

٦-اكتفيت من الفهارس بجعل فهرس للمراجع -فقط- في نهاية البحث، حتى لا يثقل البحث بكثرة الفهارس.

خطة البحث:

تتكون خطة البحث من تمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وتفصيل ذلك على النحو التالي:

التمهيد: وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الدعاء.

المطلب الثاني: تعريف الكفر.

المطلب الثالث: حاجة الكافرين لدعاء الله ﷻ.

المبحث الأول: دعاء الكافرين في الحياة الدنيا.

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: دعاء الكافرين لطلب الدنيا.

المطلب الثاني: دعاء الكافرين إذا مسهم الضر.

المطلب الثالث: دعاء الكافرين في مواجهة الأنبياء.

المطلب الرابع: دعاء الكافرين على أنفسهم.

المطلب الخامس: دعاء الكافرين إذا رأوا بعض العلامات الكبرى لقيام الساعة.

المطلب السادس: دعاء الكافرين عند الموت.

المبحث الثاني: دعاء الكافرين في الآخرة. وفيه مطلبان:

المطلب الأول: دعاء الكافرين عند قيام الساعة.

المطلب الثاني: دعاء الكافرين في النار.

المبحث الثالث: إجابة دعاء الكافرين. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أَمْر الكافرين بدعاء الله تعالى.

المطلب الثاني: حُكم القرآن على دعاء الكافرين.

المطلب الثالث: الحِكم التي لأجلها قد يجيب الله عز وجل بعض دعاء الكافرين.

ثم الخاتمة، وفيها: أهم النتائج والتوصيات.

التمهيد

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الدعاء.

الدعاء لغة: الطلب والابتهال: يُقال: دعوتُ اللّه أدعوه دعاءً: ابتهلت إليه بالسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير[1]، ودعا اللَّه: طلب منه الخير، ورجاه منه، ودعا لفلان: طلب الخير له، ودعا على فلان: طلب له الشر[2].

والدعاء في اللغة مأخوذ من مادة (دعو)، التي تدلّ في الأصل على إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك[3].

الدعاء في الاصطلاح:

تنوعت تعريفات العلماء للدعاء، ومن هذه التعريفات ما قاله الخطابي بأنّ الدعاء: "هو استدعاء العبد ربه ﷻ العناية، واستمداده إياه المعونة، وحقيقته إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة"[1].

---

(١) ينظر: الفيومي، أحمد بن محمد. "المصباح المنير في غريب الشرح الكبير". (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، غير محدد لسنة الطبع)، ١/١٩٤.

(٢) ينظر: مجمع اللغة العربية، إبراهيم مصطفى، وآخرون. "المعجم الوسيط". (ط١، القاهرة: دار الدعوة، غير محدد لسنة الطبع)، ١: ٢٦٨.

(٣) ينظر: ابن فارس، أحمد بن فارس. "معجم مقاييس اللغة". تحقيق: عبد السلام محمد هارون. (ط١، القاهرة: دار الفكر، ١٩٧٩م)، ٢/٢٧٩.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "دعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره ودفعه"[(٢)].

"والتعريف المختار: أنّ الدعاء هو التضرّع إلى الله والافتقار إليه بطلب تحقيق المطلوب أو دفع المكروه بصيغ السؤال والخبر"[(٣)].

---

(١) الخطابي، حمد بن محمد. "شأن الدعاء". تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق. (ط٣، دمشق: دار الثقافة العربية، ١٩٩٢م): ٤.

(٢) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. "مجموع الفتاوى". تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. (ط١، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٩٩٥م)، ١٥: ١٠.

(٣) المهيزع، خلود بنت عبدالرحمن. "الدعاء وأحكامه الفقهية". (بحث مقدم لنيل درجة الماجستير من قسم الفقه بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، عام ١٤٢٤هـ):٤٠.

المطلب الثاني: تعريف الكفر.

الكفر في اللغة: الستر والتغطية، ويطلق الكفر على الجحود، وهذا المعنى أيضا مأخوذ من معنى الكفر في اللغة، وهو الستر والتغطية، قال ابن فارس :"وكذلك كفران النعمة: جحودها وسترها"(١)، و"الكُفْر: تَغْطِيَة الْحق بِالْبَاطِلِ"(٢)، والكافر إذا أُطلِق يراد به من لا يؤمن بالله، فكل شَيْء غطى شَيْئا فقد كفره، وَمِنْه سمي الكافر لِأَنَّهُ يستر نعم الله(٣)، وإنما "سمِّي الكافر كافراً لأنّ الكفر غطّى قلبه كله، وإيضاحه أنّ الكفر في اللغة معناه التغطية، والكافر ذو كفر، أَي ذو تغطية لِقَلْبِهِ بكفره، كما يُقال للابِس السِّلاح: كافرٌ، وهو الذي غطّاه السلاح...، وفيه قولٌ آخر:...وذلك أَنّ الكافر لَمّا دعاه الله جلّ وعزّ

(١) ابن فارس، أحمد بن فارس. "معجم مقاييس اللغة". تحقيق: عبد السلام محمد هارون. (ط١، القاهرة: دار الفكر، ١٩٧٩م)، ٥/١٩١.

(٢) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. "الإكليل في استنباط التنزيل". تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨١م): ٧٤.

(٣) ينظر: الكفوي، أيوب بن موسى. "الكليات". تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري. (ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، غير محدد لسنة الطبع): ٧٤٢، والمناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين. "التوقيف على مهمات التعاريف". (ط١، القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٠م): ٢٨٢.

إلى توحيده فقد دعاه إلى نعمة يُنعِم بها عليه إذا قَبِلها، فلما ردّ ما دعاه إليه مِن توحيده كان كافِراً نعمةَ الله أَي مُغَطِّياً لها بإبائه، حاجباً لها عنه"(١).

والكفر اصطلاحا: هو نقيض الإيمان. والإيمان عند أهل السنة: اعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

فيحصل الكفر بأي شيء يناقض الإيمان، سواء كان بالقلب أو باللسان أو بالأفعال فعلاً أو تركاً، فيكون بالقلب؛ كاعتقاد إله مع الله، أو ببغض النبي ﷺ أو بغض الإسلام أو القرآن، ويكون باللسان؛ كالتلفظ بسبِّ الله تعالى أو رسوله، أو الاستهزاء بدينه، ويكون بالفعل؛ كالسجود لغير الله ﷻ.

وقد تنوعت تعريفات العلماء للكفر، فقد عرّفه شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه: "عدم الإيمان بالله ورسله، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب أو إعراض عن هذا كله، حسدا أو كبرا أو اتباعا لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة"(٢).

(١) الأزهري، محمد بن أحمد. "تهذيب اللغة". تحقيق: محمد عوض مرعب. (ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م)، ١٠: ١١٢.

(٢) ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، ١٢: ٣٣٥.

وقال ابن القيم: "الكافر من جحد توحيد الله وكذّب رسوله، إمّا عنادا، وإمّا جهلا وتقليدا لأهل العناد"[(١)].

وجاء في الموسوعة الفقهية: "والكفر شرعا: هو إنكار ما علم ضرورة أنه من دين محمد ﷺ، كإنكار وجود الصانع، ونبوته عليه الصلاة والسلام، وحرمة الزنا، ونحو ذلك"[(٢)].

والمقصود بدعاء الكافرين ربَّ العالمين في القرآن: الأدعية التي ذكر الله ﷻ في القرآن الكريم أنّ الكافرين يدعون بها ربّهم في الدنيا أو سيدعونه بها في الآخرة.

ويدخل في قولنا: (الكافرين) جميع أصناف أهل الكفر من المشركين، والمنافقين، وغيرهم ممن يصدق وصفه بالكفر الذي هو نقيض الإيمان.

---

(١) ابن القيم، محمد بن أبي بكر. "طريق الهجرتين وباب السعادتين". (ط٢، القاهرة: دار السلفية، ١٣٩٤هـ)، ١: ٤١١.

(٢) "الموسوعة الفقهية الكويتية". (ط١، الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٧هـ)، ٣٥: ١٤.

المطلب الثالث: حاجة الكافرين لدعاء الله ﷻ.

خلق الله تعالى الخلق وفَطَرَهم على عبادته، والتعلّق به، وإخلاص دعائه ومناجاته؛ كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ ﴾ [الروم: ٣٠]، فثبت المؤمنون على تلك الفطرة بفضل الله، وضلّ الكافرون فخالفوا تلك الفطرة، واستنكفوا عن عبادة الله وحده، وتعلّقوا بغيره؛ لكنهم يضطرّون للرجوع إلى تلك الفطرة حال ضعفهم وحاجتهم، فهم يعلمون أنه لا قاضي للحاجات على الحقيقة إلا الله، ولا مُنجي لهم من الكربات حقّاً إلا الله، ولا قادر على إجابة دعاء من يدعو وإعطاء من يسأل إلا الله، "والاعتراف بالله مَرْكُوزٌ في طلائع العالَم، وهم مجبولون على أنه المتصرِّف في الأشياء، ولذلك إذا حقّت الحقائق رجعوا إليه كلُّهم مؤمنهم وكافرهم"[(١)]، فوقت حدوث نازلة، وحلول كرب، فإنّ النفوس تتّجه إلى الله القدير السميع البصير؛ ليكشف السوء، ويجيب دعوة المضطر، وينجي من الكرب، ويعافي من الابتلاء، فلا غيره يجيب داعياً، أو ينصر مظلوماً، أو يغيث ملهوفاً، أو ييسِّر عسيراً، أو ينفِّس كرباً، ﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: ١١].

---

(١) أبو حيان، محمد بن يوسف. "البحر المحيط في التفسير". (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م)، ٦: ٣٤.

والإنسان خصوصاً مخلوق ضعيف؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨]، وهذا الضعف يحتاج بسببه صاحبه إلى مَن يمدّه بالقوة، ويؤيده بالقدرة، ويخلِّصه من الآفات، ويجلب له الخيرات، يناجيه فيجيبه، ويسأله فيعطيه، ويعوذ به فيؤمِّنه، ويفزع إليه فيغيثه.

والكافرون يزيدهم كفرهم ضعفاً فوق ضعف الخِلقة، فإذا نزل بساحتهم عذاب، أو أصابهم ضرّ، وظنوا حصول هلاكهم به، فزعوا أشدّ الفزع، وذهلوا كلّ الذهول، وتبرّؤوا من كل المعبودات، ونسوا كل الموجودات، وأهمّتهم أنفسهم، فقادتهم الضرورة إلى الرجوع إلى ما فُطِروا عليه من اليقين بأنّ الله جلّ وعلا هو القادر وحده أن يكشف ما نزل بهم، فألَحُّوا في السؤال، وأخلصوا في الدعاء، ووعدوا بالتوبة، ولكن الله -مع علمه بما سيؤول إليه حالهم من العودة للكفر- يجيبهم إن شاء؛ كما قال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٤].

فتقرّر بهذا شدة حاجة الكافرين لدعاء الله سبحانه وتعالى في كل حال، وفي وقت الضراء، وحصول البلاء، على وجه الخصوص.

المبحث الأول: دعاء الكافرين في الحياة الدنيا

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: دعاء الكافرين لطلب الدنيا

قد يدعوا الكافرون اللهَ تعالى حال الرخاء بأدعية يسألونه فيها شيئاً من أمور الدنيا، ومن هذه الأدعية التي يدعوا بها الكافرون اللهَ ﷻ لطلب شيءٍ من أمور الدنيا ما ذكره الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وهذه الآية جاءت في معرض التوجيه للمؤمنين بأن يسألوا الله خيري الدنيا والآخرة، ولا يكونوا مثل المشركين الذين إنما يسألونه الدنيا فقط[١]، فقد "كانت عادتهم في

(١) ولذا فقد اختلف المفسرون في تعيين الذين حكى الله عنهم أنهم يقتصرون في الدعاء على طلب الدنيا مَن هم؟، فقال قوم: هم الكفار، وقال آخرون: هؤلاء قد يكونون مؤمنين ولكنهم يسألون الله لدنياهم، لا لأُخراهم، ويكون سؤالهم هذا من جملة الذنوب، حيث سألوا الله تعالى في أعظم المواقف، وأشرف المشاهد حطام الدنيا وعرضها الفاني، معرضين عن سؤال النعيم الدائم في الآخرة، وقد يقال لمن فعل ذلك إنه لا خلاق له في الآخرة، وإن كان الفاعل مسلماً، كما روي في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ

الجاهلية أن يدعوا في مصالح الدنيا فقط إذ كانوا لا يعرفون الآخرة، فنهوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا، وجاء النهي في صيغة الخبر عنهم"(١)، فكان المشركون إذا حجّوا البيت الحرام، ووقفوا في المشاعر المقدّسة دعوا الله بقولهم: "اللهم ارزقنا إبلاً وبقراً وغنماً وعبيداً وإماءً وأموالاً، ولم يكونوا يسألون لأنفسهم التوبة ولا المغفرة"(٢)، فكانت أعمالهم للدنيا وزينتها، فلا يسألون ربهم إلا متاعها(٣)، وقوله

بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [آل عمران: ٧٧]، أنها نزلت فيمن أخذ مالاً بيمين فاجرة. ينظر: الرازي، محمد بن عمر. "تفسير الرازي". (ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ)، ٥: ٣٣٥.

(١) ابن عطية، محمد عبد الحق بن غالب. "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز". تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ)، ١: ٢٧٦. وينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر. "التحرير والتنوير". (ط١، تونس: دار سحنون، ١٩٩٧م)، ٢: ٢٤٧.

(٢) الطبري، محمد بن جرير. "جامع البيان عن تأويل آي القرآن". (ط٣، القاهرة: ش مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٨م)، ٤: ٢٠١، وينظر: السمرقندي، نصر بن محمد. "بحر العلوم". تحقيق: علي محمد معوّض، وآخرون. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، غير محدد لسنة الطبع)، ١: ١٣٤، وينظر: القرطبي، محمد بن أحمد. "الجامع لأحكام القرآن". (ط١، القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٤م)، ٢: ٤٣٢.

(٣) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ٤: ٢٠١، والكلبي، محمد بن أحمد. "التسهيل لعلوم التنزيل". تحقيق: محمد سالم هاشم. (ط١، بيروت: دار

تعالى: ﴿مِنۡ خَلَٰقٖ﴾: "أي مِن حظَ ونصيبٍ؛ لاقتصار همِّه على الدنيا، فهو بيانٌ لحاله في الآخرة، أو (مِن طلبِ خَلاقٍ)، فهو بيانٌ لحاله في الدنيا، وتأكيدٌ لقصر دعائه على المطالب الدنيوية"(١).

"فالمقصود من الآية التعريض بذم حالة المشركين، فإنهم لا يؤمنون بالحياة الآخرة"(٢)، ودعاء الكافرين المذكور في هذه الآية هو أنموذجٌ لأدعيتهم في الدنيا، فهم إن دعوا الله في الدنيا وقت الرخاء فإنما يدعونه بطلب الدنيا فقط، ولا يسألون شيئاً من نعيم الآخرة والنجاة من عذابها، كما أنهم في دعائهم هذا حال الرخاء لم يذكر الله عنهم إخلاصاً في الدعاء، ولم يعِدوا بترك الكفر، كما يحصل منهم عند إصابتهم بالشِّدّة والضراء في الدنيا، ولم يتوسلوا حال دعائهم في الرخاء بإيمان، كما يحصل منهم في الآخرة.

ويظهر من دعائهم بقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أنهم إنما يسألون أيّ شيءٍ يكون فيه تنعيمهم في الدنيا، فلم يذكر الله تعالى أنهم

الكتب العلمية، ١٩٩٥م)، ١: ١١٦.

(١) ينظر: أبو السعود، محمد بن محمد. "إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم". (ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١١هـ)، ١: ٢٠٩، وينظر: رضا، محمد رشيد. "تفسير المنار". (ط١، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م)، ٢: ١٨٩.

(٢) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٢: ٢٤٧.

سألوه حسنة كما أخبر عن المؤمنين، وإنما كان دعاؤهم لطلب أن يُعطوا من عرض الدنيا الزائل يتمتعون به كما تتمتع الأنعام، فلذلك ذمّ الله حال دعائهم هذا، "وتضمَّن هذا الذَّمُّ التّنفير عن التشبُّه بِمَنْ هو كذلك"[1]، وقد أثنى الله على المؤمنين في دعائهم إياه، وبيّن أنه هو الدعاء النافع الذي ينبغي أن يُسأل اللهُ به، ووعدهم بإجابته، حيث قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ البقرة: [٢٠١ - ٢٠٢].

---

(١) ابن كثير، إسماعيل بن عمر. "تفسير القرآن العظيم". (ط٢، دمشق: مكتبة دار الفيحاء، ١٩٩٨م)، ١: ٥٥٨.

المطلب الثاني: دعاء الكافرين إذا مسهم الضر

من أدعية الكافرين لرب العالمين التي كثُر ذِكْرُها في القرآن الكريم دعاؤُهم عندما يمسهم الضر، ويحلّ بهم الهلاك، وتحصل لهم المشقة الشديدة، وينزل بهم الكرب العظيم، فإنهم والحالة هذه يفزعون إلى الدعاء، وينادون رب الأرض والسماء، ويسألونه كشف الضر ودفع البأساء.

ومن أمثلة دعاء الكافرين حال نزول الضرّاء بهم ما ذكره الله في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [الروم: ٣٣]، أي: وإذا مسّ هؤلاء المشركين -الذين يجعلون مع الله إلها آخر- ضُرٌّ، فأصابتهم شِدّة وجدب ونحو ذلك، ﴿دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾، أي: أفردوه بالدعاء والتضرّع إليه، واستغاثوا به ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾، أي: راجعين إليه تعالى من دعاء غيره ﷻ من الأصنام وغيرها؛ لِيَنْجُوا مِنْ ذلك الضُّرِّ، وتركوا أصنامهم لِعلمهم أنه لا يكشف الضُّرَّ إلا هو تعالى(١).

(١) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ٢٠: ١٠١، والقيسي، مكي بن أبي طالب. "الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه". تحقيق: مجموعة باحثين في رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي -جامعة الشارقة، بإشراف أ.د: الشاهد

وذكر الله تعالى أنّ الإنسان الكافر حين تصيبه الضراء يدعو الله على كل أحواله سائلاً إيّاه كشف الضر، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس: ١٢]، "والدعاء هنا: الطلب والسؤال بتضرُّع"[١]، ومعنى الآية: أنّ الإنسان إذا أصابه من الضر ما يشعر فيه بشدة ألم أو خطر على نفسه؛ كغرق ومسغبة وداء عضال، دعا الله مُلِحّاً في كشفه طَالِبًا مِنَ اللَّه تَعَالَى إزالة تلك المحنة، وتبديلها بالنعمة والمحنة، فيدعو في سائر أحواله بإلحاح وتضرع أن يكشف الله عنه ذلك السوء، فإذا كشف

البوشيخي. (ط:١، الشارقة: مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ٢٠٠٨م)، ٩: ٥٦٩٠، وينظر: السمعاني، منصور بن محمد. "تفسير السمعاني". (ط١، المدينة المنورة: دار البخاري، ١٩٩٢م)، ٤: ٢١٤، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ١٤: ٣٣، والبيضاوي، عبدالله بن عمر. "أنوار التنزيل وأسرار التأويل". (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م)، ٤: ٢٠٧، وينظر: أبو حيان، "البحر المحيط"، ٨: ٣٩١، وينظر: الألوسي، محمود أبو الفضل. "روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني". (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م)، ١١: ٤٢.

(١) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ١١: ١١٠.

تعالى عنه ذلك أعرض عن الشكر، ولم يتذكر الضر الذي أصابه، ونسي الإنعام الذي تفضّل الله به عليه، وعاد إلى ما كان عليه من الشرك بالله تعالى والإعراض عن عبادته، وإنما ذكر الله ذلك تنبيهاً إلى أنّ هذه الحالة مذمومة، فينبغي للمؤمن أن يكون دائم اللجوء إلى الله تعالى، دائم الدعاء في الرخاء ووقت الضراء، حتى يكون عابداً لله حقاً(١). ثم يقول الله تعالى في ختام هذه الآية: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: كما زُيِّن لهذا الإنسان الذي وصف الله ﷻ صفتَه استمرارُه على كفره بعد كشف الله عنه ما كان فيه من الضر، كذلك زُيّن للذين أسرفوا في الكذِب على الله، فتجاوزوا إلى غير ما أذن الله لهم، ووقعوا في الشرك به جلّ وعلا(٢).

---

(١) ينظر: الرازي، "تفسير الرازي"، ١٧: ٢٢٠، وينظر: الخازن، علي بن محمد. "لباب التأويل في معاني التنزيل". تصحيح: محمد علي شاهين. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ)، ٢: ٤٣١.

(٢) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ١٥: ٣٧، والقيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، ٥: ٣٢٣١، وينظر: البغوي، الحسين بن مسعود. "معالم التنزيل في تفسير القرآن". تحقيق: عبد الرزاق المهدي. (ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ)، ٢: ٤١٣، وينظر: المراغي، أحمد بن مصطفى. "تفسير المراغي". (ط١، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٤٦م)، ١١: ٤٧.

وقوله تعالى: ﴿ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا ﴾[يونس: ١٢]، قَالَ أهل التَّفْسِير: هَذَا يحْتَمل مَعْنيين:

أَحدهمَا: إِذا مَسّ الْإِنْسَانَ الضّر لجنبه أَو قَاعِدا أَو قَائِما دَعَانَا، وقد استبعد هذا المعنى بعض المفسرين، وحكم بضعفه(١).

والآخر: إِذا مَسّ الإنسانَ الضرّ دعانا لجنبه أَو قاعِداً أَو قائما، يعني: على هذه الأحوال كلِّها(٢).

وهذا الأخير هو الذي يدلّ عليه سياق الآية، فالمراد أن الكافر إذا مسّه الضر يتوجّه في جميع أحواله إلى الله تعالى بالدعاء، "فلا يزال

(١) ينظر: الواحدي، علي بن أحمد. "التفسير البسيط". تحقيق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه. (ط١، الرياض: عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٠هـ)، ١١: ١٣٨، وينظر: العكبري، عبد الله بن الحسين. "التبيان في إعراب القرآن". تحقيق: علي محمد البجاوي. (ط١، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٧٦م)، ٢: ٦٦٧.

(٢) ينظر: الزجاّج، إبراهيم بن السري. "معاني القرآن وإعرابه". تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، (ط١، بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٨م)، ٣: ٩، والواحدي، "التفسير البسيط"، ١١: ١٣٧، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٢: ٣٦٩، والبغوي، "معالم التنزيل"، ٢: ٤١٣.

داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر"[١]، فيكون حال اضطجاعه يدعو الله، وحال قعوده يدعو الله، وحال قيامه يدعو الله، وذلك لعلمه أنه لا يستطيع أحدٌ كشف الضر على الحقيقة غير الله تعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقد بيّن الله تعالى حال الكفار حين يلجؤون إليه عند حصول الضرر لهم، وأنّ ذلك اللجوء والدعاء إنما يكون عن غير يقين منهم ولا إيمان، فلذلك ليس بمُعْتَدٍّ به، فيقول سبحانه:﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾ [الزمر: ٨].

والإنسان في هذه الآية وأمثالها –كما تقدّم– يراد به الكافر، ويستشهد لذلك في هذا الموضع بدلالة ما وصفه به في الآية من اتخاذ الأنداد لله تعالى، أي: وإذا مَسَّ الكافر بلاء في جسده من مرض، أو عاهة، أو شدّة في معيشته، وجهد وضيق، ﴿ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾، أي

(١) الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٣٣٢.

أخلص دعاء الله تعالى، مقبلاً إليه بدعائه، لا يعوِّل على غيره، ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾، خَوَّلَهُ معناه: ملّكه وحكّمه فيها وَأَعْطَاهُ بَعْدَ كَشْفِ ذَلِكَ الضُّرِّ عَنْهُ، فالمعنى: بدّله مكان البلاء عافية وفرجاً مما نزل به، ﴿ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ أي: ترك دعاء الله، وقيل: نسي الله الذي كان يدعوه من قبل، وقيل: نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه، ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾، أي: شركاء، يطيعهم في معاصي الله تعالى، وقيل: الأنداد: الأوثان، ﴿ لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾، مَن ضَمّ الياء في ﴿ لِّيُضِلَّ ﴾، فمعناه: فعل ذلك ليزيل الناس عن توحيد الله سبحانه والإقرار به والدخول في دينه، ومَن فَتَح الياء، فمعناه: (ليَضِلَّ) في نفسه عن دين الله سبحانه[1]. ثم يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: {لِيَضِلَّ عَن سَبيله}، بفتح الياء، أَي لِيضِلّ هو، وقرا الباقون {لِيُضِلَّ} بِضَم الْيَاء أَي لِيُضِلَّ غَيره. ينظر: ابن زنجلة، عبد الرحمن بن محمد. "حجة القراءات" تحقيق: سعيد الأفغاني. (ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، غير محدد لسنة الطبع): ٦١٩، وينظر: الداني، عثمان بن سعيد. "التيسير في القراءات السبع". تحقيق: اوتو تريزل. (ط٢، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٤م): ١٣٤، وينظر: ابن الجزري، محمد بن محمد. "تحبير التيسير في القراءات العشر". المحقق: د. أحمد محمد مفلح القضاة. (ط١، عمّان: دار الفرقان، ٢٠٠٠م): ٤٢٥، وينظر: الدمياطي، أحمد بن محمد. "إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر". تحقيق:

مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾، أي: قل يا أيها الرسول لهذا الكافر: تمتع بكفرك إلى أن تستوفيَ أجلك، فإنك في الآخرة من الماكثين في النار، وهذا لفظ معناه التهدد والوعيد، مثل قوله تعالى:﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، فقَوْلُهُ ﴿ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ ﴾، ليس المراد منه الأمر، بل المراد منه الزجرُ وأن يعرفه قلة تَمَتُّعِهِ في الدنيا ثم مصيره إلى النار، وفيه من ذم الكفر ما لا يخفى كأنه قيل: إذ قد أبيت ما أمرت به من الإيمان والطاعة فمن حقك أن تؤمر بتركه لتذوق عقوبته، وهي الخلود في النار(١).

وهذه الآية وأمثالها من الآيات التي ذَكَرت أدعيةَ الكافرين توضِّح حالَهم حين نزول الضرّاء بهم في الدنيا، فإنّ "طريقة هؤلاء الكفار الذين

أنس مهرة. (ط٣، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦م): ٣٤٣.

(١) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ٢١: ٢٦٢، والسمرقندي، "بحر العلوم"، ٣: ١٧٩، والقيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، ١٠: ٦٣٠٣، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٤: ٤٦٠، والزمخشري، "الكشاف"، ٤: ١١٦، وابن عطية، "المحرر الوجيز"، ٤: ٥٢١، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ٥: ٢٣٨، وابن عادل، عمر بن علي الحنبلي. "اللباب في علوم الكتاب". تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م)، ١٦: ٤٨١، والألوسي، "روح المعاني"، ١٢: ٢٣٦، وابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٢٣: ٣٤٢.

يعبدون الأصنام متناقضة، وذلك لأنهم إذا مسّهم نوع من أنواع الضرِّ لم يرجعوا في طلب دفعه إلا إلى الله، وإذا زال ذلك الضرُّ عنهم رجعوا إلى عبادة الأصنام، ومعلومٌ أنهم إنما رجعوا إلى اللَّه تعالى عند حصول الضرِّ، لأنه هو القادر على إيصال الخير ودفْعِ الضرِّ، وإذا عرفوا أنّ الأمر كذلك في بعض الأحوال كان الواجب عليهم أن يعترفوا به في كلِّ الأحوال فثبت أنّ طريقتهم في هذا الباب مُتناقِضةٌ"(١).

وذَكَرَ الله تعالى أنّ الكافر بعدما يجيب الله دعوته وينجيه من المهالك ويمدّه بالنعم، فإنه ينسب الفضل لنفسه، وينسى أنّ الله تفضّل عليه وأعطاه سؤله، وعافاه بعد أن ابتلاه، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر: ٤٩]. أي: فإذا أصاب الإنسان الكافر بؤس وشدّة دعانا مستغيثاً بنا من جهة ما أصابه من الضرّ، ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا ﴾ أي: إذا أعطيناه فرجا مما كان فيه من الضرّ، بأن أبدلناه بالضرّ رخاء وسعة، وبالسقم صحة وعافية، ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ ﴾ أي: قال: إنما أعطيت الذي أعطيت من الرخاء والسعة في المعيشة، والصحة في البدن والعافية، على علم، يعني

(١) الرازي، "تفسير الرازي"، ٢٦: ٤٢٧.

على علم من الله بأني له أهل لشرفي ورضاه بعملي، وقيل: يعني: إنَّما حصل ذلك بِكسْبِه وبسبب جُهده وجِدِّه، فإن كان مالاً قال: إنّما حصل بِكسبي، وإن كان صِحّة قال: إنّما حصل ذلك بسبب العلاج الفلانيّ، قال الله تعالى رادّاً على مَن ينسب الفضل لنفسه: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٌ﴾ أي: بل عطيَّتُنا إياهم تلك النعمة من بعد الضرّ الذي كانوا فيه فتنة لهم، يعني بلاء ابتليناهم به، واختبارا اختبرناهم به، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ﴾ لجهلهم وسوء رأيهم ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لأي سبب أُعطوا ذلك، فلهذا يفترون الكذب، وينسبون النعمة لأنفسهم(١).

ومن دعاء الكافرين حال خوفهم من وقوع الضرِّ بهم في الدنيا: ما يكون منهم إذا ركبوا البحر فتحرّكت الريح وهاجت الأمواج وكادت سفنهم أن تغرق، فهنالك يخلصون لله الدعاء، ويسألونه النجاة، وقد

(١) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ٢١: ٣٠٣، والقيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، ١٠: ٦٣٥٢، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٤: ٤٧٣، وابن عطية، "المحرر الوجيز"، ٤: ٥٣٦، والرازي، "تفسير الرازي"، ٢٦: ٤٥٨، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ١٥: ٢٦٦، وابن كثير: "تفسير القرآن العظيم"، ٧: ١٠٥، والشوكاني، محمد بن علي. "فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير". (ط١، بيروت: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ١٤١٤هـ)، ٤: ٧٣٥، وابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٢٤: ٣٦.

ذكر الله تعالى في عدة مواضع من كتابه حالهم ذلك، ومن تلك المواضع ما يبيّنه قوله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس: ٢٢]، فقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾، يعني: يحملكم ويسهل لكم السير في البر على الدواب، وفي البحر على السفن، فهو الذي يحفظكم إذا سافرتم في بر أو بحر، وقُرِئ (يَنْشُرُكُمْ) بالنون والشين من النشر، أي: يَبُثُّكم[(١)]، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾، يعني: في السفن، ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾، أي: مضت السفن بمن فيها، وعَدَل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة، كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم، ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ يعني: لينة ساكنة، ﴿ وَفَرِحُوا۟ بِهَا ﴾ بالريح الطيبة، ﴿ جَآءَتْهَا ﴾

---

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر: {ينشُرُكم}، بالنون والشين، أَي يبثُّكم ويفرِّقكم، وهو من النشر ضدّ الطيّ، وقرا الباقون {يُسَيِّرُكُم} بِالسين والياء، من التسيير، أَي: يحملكم على السير. ينظر: ابن زنجلة، "حجة القراءات": ٣٢٩، والداني، "التيسير في القراءات السبع": ١٢١، وابن الجزري، "تحبير التيسير في القراءات العشر": ٣٩٨، والدمياطي، "إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر": ٣١١.

يعني: السفينة، ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: شديدة ذات عصفٍ، ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يعني: من كل ناحية، ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾، أي: علموا وأيقنوا أنه قد دنا هلاكهم، وسُدّت عليهم مسالك الخلاص، هنالك ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: إذا دنا هلاكهم أخلصوا لله تعالى الدعاء، ولم يدعو أحداً سواه، وقالوا: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾، أي: من هذه الريح العاصف، ويقال: من هذه الأهوال، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: من الموحدين المطيعين(١).

ومع أنهم أكّدوا وعدهم بالشكر بثلاث مؤكدات، أولها: لام توطئةِ القسم، وثانيها: نون التوكيد، وثالثها: التعبير بصيغة ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ دون لنكوننّ شاكرين، بما يفيده مِن عزمهم على أن يكونوا مِن تلك الزُّمرة التي ديدنها الشكر؛ لكن هذا الوعد منهم بشكر الله وتوحيده لا يلبث أن ينتقض بإشراكهم بعد إذ نجّاهم الله من الغرق الذي كاد أن يهلكهم، ويصور القرآن هذا الحدث بقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾[يونس: ٢٣]، "أي:

---

(١) ينظر: السمرقندي، "بحر العلوم"، ٢: ١١٠، والبغوي، "معالم التنزيل"، ٢: ٤١٥، والبيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ١٠٩، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٤: ٢٥٩، وأبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٤: ١٣٤، والألوسي، "روح المعاني"، ٦: ٩٣.

نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله، من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد، ولا يدفع عنهم المضايق، فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء، كما أخلصوها في الشدة؟!"[1].

قال القرطبي: "وفي هذا دليلٌ على أنّ الخَلْق جُبِلُوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأنّ المضطرّ يُجاب دعاؤه، وإنْ كانَ كافراً، لِانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحِد ربِّ الأرباب"[2].

ويؤكِّد هذه الحقيقة قول الله ﷻ مخاطباً الكافرين: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]. أي: وإذا نالتكم أيها الكافرون الشدّة والجهد في البحر فاضطرب وتموّج، فقدتّم من تدعون من دون الله من الأنداد والآلهة، فلم يغثكم، ولم تجدوا غير الله مغيثا يغيثكم، فلما دعوتموه وأغاثكم، وأجاب دعاءكم ونجاكم من هول ما كنتم فيه في البحر، أعرضتم عما دعاكم إليه ربكم من توحيده، والبراءة من الإشراك به ودعاء غيره، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ أي: ذا جحد لنعم ربه، إلا من عصم الله تعالى.

(١) السعدي، "تيسير الكريم الرحمن": ٣٦١، وينظر: ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ١١: ١٣٨.

(٢) القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ٨: ٣٢٥.

فهم وإن حاولوا طمس فطرة توحيد الله التي فطر الناس عليها، إلا أنها تظهر حال الشدة ولا يستطيعون مغالبتها، فلا يتضرعون في حال الشدة لما يعبدون من دون الله لعلمهم أنه لا يملك لهم أحد جلب النفع أو دفع الضر على الحقيقة إلا الله جل وعلا؛ فلذلك أخلصوا له الدعاء حال الشدة(١).

ومعنى ﴿ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ أي: "ذهب عن أوهامكم وخواطركم كلّ من تدعونه في حوادثكم إلا إياه وحده، فإنكم لا تذكرون سواه، ولا تدعونه في ذلك الوقت ولا تعقدون برحمته رجاءكم، ولا تُخطِرون ببالكم أنّ غيره يقدر على إغاثتكم، أو لم يهتد لإنقاذكم أحد غيره من سائر المدعوّين. ويجوز أن يراد: ضلّ من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم، ولكنّ الله وحده هو الذي ترجونه وحده"(٢).

ثمّ بينّ الله ﷻ للمشركين في الآيتين اللتين تلي الآية السابقة "أنّ رجوعهم للشرك بعد أن نجّاهم الله من الغرق، مِن شِدّة جهْلِهم وعماهم؛ لأنّه قادرٌ على أن يهلكهم في البَرِّ، كقدرته على إهلاكهم في

---

(١) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ١٧: ٤٩٧، والسمرقندي، "بحر العلوم"، ٢: ٣٢٠، والبغوي، "معالم التنزيل"، ٣: ١٤٤، وابن عطية، "المحرر الوجيز"، ٣: ٤٧١، والرازي، "تفسير الرازي"، ٢١: ٣٧١، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٥: ٩٦.

(٢) الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٦٧٩.

البحر، وقادرٌ على أن يعيدهم في البحر مرة أخرى، ويهلكهم فيه بالغرق، فجُرْأتهم عليه إذا وصلوا البَرّ لا وَجْهَ لها؛ لأنّها مِن جهلهم وضلالِهم، وذلك في قوله: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٨ - ٦٩]"[١].

ويأتي تصوير لحظات مصارعة مراكب الكفار في البحر للجج الأمواج، وخوفهم من الهلاك، ولجوؤهم لدعاء الله تعالى، في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [لقمان: ٣٢]، يعني: يأتيهم الموج بعضه فوق بعض، ويكون لسواده وكثرته مثل الظلل، والظلة: كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما. ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ يعني: أخلصوا له بالدعوة ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ ﴾ يعني: إلى القرار ﴿ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ أي: فمنهم من يؤمن، ومنهم من يكفر ولا يؤمن، وقيل في معنى المقتصد: "عدل

---

(١) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن". (ط١، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥م)، ١: ٤٧٨.

فِي فعله، على معنى الْوَفَاءِ بِمَا وعده، وَمِنْهُم من قَالَ: مقتصد أَي: مقتصد فِي القَوْل لَا يسرف"[١]. وقيل: معنى "مُقْتَصِدٌ: متوسط في الكفر والظلم، خفض مِن غُلَوَائه[٢]، وانزجر بعض الانزجار"[٣]، فيكون المعنى: أنّ مِن الكافرين مَن يعود إلى كفره بعد أن عاهد اللهَ على الإيمان إن هو نجّاه، لكنّه ليس موغِلاً في الكفر والعداوة للحق وأهله كما كان قبل يحصل له ما حصل من الشدّة وتوقع الهلاك ثم النجاة بعد ذلك، وقد رجّح ابن عاشور هذا القول لدلالة السياق عليه، حيث قال: "والْمَقام دليل على أنّ الْمُراد الاقتصاد في الكفر، لوقوع تذييله بقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾، ولقوله في نظيره في سورة العنكبوت: ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقد يُطلق الْمُقْتَصِدُ على الذي يتوسّط حالُه بين الصّلاح وضدِّه؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المائدة: ٦٦]"[٤].

---

(١) السمعاني، "تفسير السمعاني"، ٤: ٢٣٩.

(٢) (الغُلَوَاء): الشِّدَّة، وغُلَوَاء الشَّباب: أوّلُه وشِدَّتُه، ومعنى "خفض من غلوائه": خفَّف من حِدَّته ومن مطالبه المتشدِّدة. ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم. "لسان العرب". (ط٣، بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ)، ١٥: ١٣٣.

(٣) الزمخشري، "الكشاف:"، ٣: ٥٠٣.

(٤) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٢١: ١٩١.

وقيل: "مُقْتَصِدٌ: سالك القصد أي الطريق المستقيم لا يعدل عنه لغيره، وأصله استقامة الطريق...، والمراد بالطريق المستقيم التوحيد،...أي: فمنهم مقيم على التوحيد،...وقيل: مقتصد من الاقتصاد بمعنى التوسط والاعتدال"[1]. ثم ذكر المشرك الذي ينقض العهد فقال تعالى: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ يعني: لا يترك العهد ﴿ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ يعني: غدّارٍ بالعهد، كفورٍ لله ﷻ في نعمه[2].

ويصوِّر القرآن حالتين لدعاء الكافرين حال ركوبهم البحر:

الحالة الأولى: مجرّد ركوبهم البحر يجعلهم خائفين من الهلاك بالغرق، فيخلصون لله الدعاء ويسألونه أن ينجيهم، وهذه الحالة نجد تصويرها في مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فبيّن الله تعالى في هذه الآية وأمثالها أنّ المشركين بمجرّد ركوبهم البحر يتوجهون إلى الله بالدعاء ولو لم يحصل لهم اضطراب سفن، أو هيجان ريح، أو تلاطم أمواج، وذلك بسبب ما يعتريهم من الخوف عند ركوبهم البحر بسبب قلة فهمهم بركوبه؛ لأنّ أكثر أسفارهم كانت في البراري[3]. "أي: فإذا ركب هؤلاء المشركون في السفينة في البحر

(١) الألوسي، "روح المعاني"، ١١: ١٠٣.

(٢) ينظر: السمرقندي، "بحر العلوم"، ٣: ٣٠.

(٣) ينظر: ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٢١: ٣٢.

فخافوا الغرق والهلاك أخصلوا لله الدعاء، وتركوا آلهتهم التي يعبدون"[١]، فيكون حالهم حال مَن أخلص دينه من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلا الله، ولا يدعون سواه؛ لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد إلا هو جل وعلا[٢].

وفي مجيء هذه الآية بعد قول الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: ٦٤]، إشارة إلى أنّ مِن أسباب إشراك أولئك المشركين تعلُّقهم بالدنيا، فإذا خافوا الموت رجعوا إلى فطرة التوحيد وإفراد الله بالدعاء، فإذا أنجاهم عادوا إلى ما كانوا عليه من حب الدنيا والشرك بالله ودعاء غيره تعالى[٣]، "وقيل: إشراكهم أن يقول قائلهم: لولا الله والرَّئِيسُ أو الملَّاحُ لَغَرِقْنا، فيجعلون ما فعل اللَّهُ لهم مِن النّجاة قِسْمَةً بين الله وبين خلقه"[٤].

والحالة الثانية: رؤيتهم لما يخيفهم أكثر حال ركوبهم البحر؛ كارتفاع الأمواج التي تُرى مثل الجبال في البحر من عظمتها وارتفاعها،

(١) القيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، ٩: ٥٦٤٨.

(٢) ينظر: البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٤: ١٩٩، والألوسي، "روح المعاني"، ١١: ١٤.

(٣) ينظر: الرازي، "تفسير الرازي"، ٢٥: ٩٦.

(٤) القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ١٣: ٣٦٣.

وهذه الحالة نجد تصويرها كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [لقمان: ٣٢]، فقوله هنا: ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾، "فلمّا ذكر هاهنا أمراً عظيماً وهو الموج الذي كالجبال بقي أثر ذلك في قلوبهم قال: ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ أي: فخرج منهم (مُقْتَصِدٌ)، أي في الكفر، وهو الذي انزجَر بعضَ الانزِجار، أو مُقْتَصِدٌ في الإخلاص، فبقي معه شيءٌ منه ولم يبق على ما كان عليه مِن الإخلاص، بينما في الحالة الأولى لم يَذكر مع ركوب البحر مُعايَنة مِثل ذلك الأمر، فذَكر إشراكهم حيث لم يبق عنده أثر"(١).

ومن الأوقات التي ذُكِرت في القرآن الكريم أنّ الكافرين يُبادِرون حينها إلى دعاء رب العالمين: ما يكون منهم حال مباغتتهم بعذاب دنيوي وإصابتهم بمصيبة نازلة؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٠ - ٤١]، فأُمِر النبي ﷺ أن يخاطب أولئك المشركين ويسألهم قائلا: ﴿ أَرَأَيْتَكُمْ ﴾، أي: أخبروني، ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ ﴾ أي: إن جاءكم

(١) الرازي، "تفسير الرازي"، ٢٥: ١٣٢، بتصرف.

أيها القوم عذاب الله، كالذي جاء من قبلكم من الأمم الذين هلكوا بأنواع العذاب الذي أخذهم بغتة، "وإضافة العذاب إلى اسم الجلالة لتهويله، لصدوره مِن أقدر القادرين، والمراد عذابٌ يحصل في الدنيا يَضَّرَّعُون إلى الله لرفعه عنهم"[١]، ﴿ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ التي تنشرون فيها من قبوركم، وتبعثون لموقف القيامة، ﴿ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ ﴾ أغير الله هناك تدعون لكشف ما نزل بكم من البلاء، أو إلى غيره من آلهتكم تفزعون لينجيكم مما نزل بكم من عظيم البلاء؟ ﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أي: إن كنتم مُحِقِّين في دعواكم وزعمكم أنّ آلهتكم التي تدعونها من دون الله تنفع أو تضر[٢]، فلا شك أنهم حال نزول العذاب بهم إنما يلجؤون إلى الله وحده دون سواه، وينسون ما سواه مما كانوا يدعونه من معبوداتهم قبل ذلك، فلا يتذكرونهم حال وقوع الشدة، بل يُعرِضون عن دعائهم، ويتوجّهون إلى الله وحده ضارعين بالدعاء، ولذا قال سبحانه في الآية التالية: ﴿ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنعام: ٤١]، فهم يرجعون إلى الله وقت حصول البلاء،

---

(١) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٧: ٢٢٤.

(٢) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ١١: ٣٥٣، والقيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، ٣: ٢٠٢٠، والبغوي، "معالم التنزيل"، ٢: ١٢٣، وابن عطية، "المحرر الوجيز"، ٢: ٢٩٠.

ويخلصون له الدعاء، فإذا شاء كشف عنهم البأساء، ورفع عنهم الضراء، وإن شاء أهلكهم غير ظالمٍ لهم؛ لأنهم غير صادقين في توبتهم تلك، وإنما يعودون للإشراك بمجّرد رفع العذاب عنهم ونجاتهم من الشدة التي وقعت بهم، كما أخبر الله عنهم في مواضع أخرى من كتابه الكريم[1].

وفي هذا السؤال للمشركين وبيان حالهم عند نزول الضرِّ بهم مُحاجّة لهم ودعوة لهم إلى التفكر فيما هم عليه من الضلال كي يعودوا إلى رشدهم وتوحيد ربّهم، فكأنه تعالى يقول لعبدة الأوثان: إذا كنتم ترجعون عند نزول الشدائد إلى الله تعالى لا إلى الأصنام وما تعبدون من دونه، فلِمَ تبقون على عبادة تلك الأوثان التي لا تملك لكم ضراً ولا نفعاً على الحقيقة، ولا تكشف عنكم العذاب حال حصوله؟[2].

ولا يقع عذابٌ بالكافرين إلا بعد أن تُقام عليهم الحجّة، وتبلغهم رسالات الله تعالى على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام؛ كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥ ﴾ [الإسراء: ١٥]، وبيّن الله تعالى أنه لو أهلك الكافرين بعذاب من قبل أن يقيم عليهم الحجّة ويرسل إليهم الرسل للجَؤُوا إلى دعاء الله تعالى وسؤاله أن

(١) ينظر: الشنقيطي، "أضواء البيان"، ١: ٤٧٨.

(٢) ينظر: الرازي، "تفسير الرازي"، ١٢: ٥٣٣، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ٦: ٤٢٣، وأبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٣: ١٣٢.

يرسل إليهم رسولا يبلّغهم مراد الله منهم؛ كما قال ﷻ: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [طه: ١٣٤]. أي: ولو أنا أهلكنا هؤلاء المشركين الذين يكذبون بهذا القرآن من قبل أن ننزله عليهم، ومن قبل أن نبعث داعيا يدعوهم إلى ما فرضنا عليهم فيه بعذاب ننزله بهم بكفرهم بالله، لكان لهم أن يقولوا يوم القيامة، إذ وردوا علينا، فأردنا عقابهم: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا يدعونا إلى طاعتك، فنتبع آياتك: يقول: فنتبع حجتك وأدلتك وما تنزله عليه من أمرك ونهيك من قبل أن يصيبنا الذل والهوان والخزي والفضيحة بتعذيبك إيّانا، وقيل: الخزي فِي حَشْرِهِمْ مَعَ الْجُنَاةِ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٧] (١). وقيل في معنى قولهم: ﴿ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤]، أي: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ بالقتل والسبي في الدنيا، وَنَخْزى بدخول النار يوم القيامة (٢). وقال

---

(١) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ١٨: ٤٠٧، والقيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، ٧: ٤٧٢٢، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٣: ٣٦٦، والبغوي، "معالم التنزيل"، ٣: ٢٨٢، والرازي، "تفسير الرازي"، ٢٢: ١١٦، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ١١: ٢٦٤، وابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ١٦: ٣٤٧.

(٢) ينظر: البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٤: ٤٤، والألوسي، روح المعاني، ٨: ٥٩٣،

سبحانه: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [القصص: ٤٧]. وفي الآية تقدير، ومعناها: لولا أن يقولوا ربنا هلّا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين، لعاجلهم العذاب في الدنيا، ولأصابتهم مُّصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم، فلولا قولُهم هذا عندَ إصابة عقوبة جناياتهم التي قدَّمُوها ما أرسلناكَ؛ لكن لَمَّا كانَ قولُهم ذلكَ محقَّقاً لا محيدَ عنه أرسلناك قطعا لمعاذيرهم ودفعاً لحجتهم(١). وإنما كان السبب في قولهم هذا هو نزول العقاب، لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم، وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم ما لا يخفى؛ كقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ ﴾ [الأنعام: ٢٨](٢).

ومن العجيب أن يكون المشركون في الجاهلية يجأرون إلى الله تعالى بالدعاء إذا مسّهم الضر، بينما لا نجد هذا من مشركي زماننا

والقاسمي، محمد جمال الدين بن محمد. "محاسن التأويل". تحقيق: محمد باسل عيون السود. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ)، ٧: ١٧١.

(١) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ١٩: ٥٨٧، والسمرقندي، "بحر العلوم"، ٢: ٦١١، والقيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، ٨: ٥٥٤٣، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٤: ١٤٤، وابو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٧: ١٧، والسعدي، "تيسير الكريم الرحمن": ٦١٧.

(٢) ينظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٣: ٤١٩.

الذين طغت عليهم المادية المعاصرة، وانطمست لديهم الفطرة التي تجعل الإنسان يتوجّه إلى خالقه بالدعاء في وقت الضرّاء خاصة، وقد تأوّه العلماء لهذه المعضلة، وبيّنوا مدى انحطاط مشركي الأزمنة المتأخرة في سفول الشرك بالله جل وعلا، فهذا الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله يقول –في كتابه (القواعد الأربع)–: "القاعدة الرابعة: أنّ مشركي زماننا أغلظ شِركاً مِن الأوّلين؛ لأنّ الأوّلين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، ومشركو زماننا شركهم دائم في الرخاء والشدة. والدليل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]"[١].

ويقول الألوسي عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾[يونس: ٢٢]: "...فالآية دالة على أنّ المشركين لا يدعون غيره

(١) ينظر: ابن عبدالوهاب، محمد بن عبدالوهاب. "القواعد الأربع"، (وهو مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الأول). تحقيق: عبدالعزيز بن عبد الرحمن السعيد وغيره. (ط١، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، غير محدد لسنة الطبع)، ١: ٢٠٢.

تعالى في تلك الحال، وأنت خبير بأنّ الناس اليوم إذا اعتراهم أمرٌ خطيرٌ، وخطبٌ جسيمٌ، في بَرٍّ أو بحرٍ، دعوا مَن لا يضرُّ ولا ينفع، ولا يرى ولا يسمع...، ومنهم من يستغيث بأحد الأئمّة، ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأُمّة، ولا ترى فيهم أحداً يَخُصُّ مولاه بتضرعه ودعاه، ولا يكاد يمر له ببال أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال، فبالله تعالى عليك قل لي أيُّ الفريقين مِن هذه الحيثية أهدى سبيلا وأي الداعيين أقوم قيلا؟، وإلى الله تعالى المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة، وتلاطمت أمواج الضلالة، وخُرِقت سفينة الشريعة، واتُّخِذت الاستغاثة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة!"[1].

وعند تفسير ذاتِ الآية يقول الشيخ محمد رشيد رضا: "وفي هذه الآية وأمثالها بيانٌ صريحٌ لكون المشركين كانوا لا يدعون في أوقات الشدائد وَتَقَطُّعِ الأسباب بهم إلا اللهَ رَبَّهم، ولكن مَن لا يُحْصَى عَددُهم مِن مُسْلِمِي هذا الزّمان بِزَعْمِهِم لا يدْعُون عند أشدِّ الضِّيق إلا معبوديهم من الميِّتين!...وقد سَمِعْتُ مِن كثيرٍ مِن الناس...حِكايةً يتناقلونها...، ومُلخّصها أنّ جماعةً ركبوا البحر فهاج بهم حتى أشرفوا على الغرق، فصاروا يستغيثون مُعْتَقَدِيهِم، فبعضهم يقول: يا (فلان...)، وبعضهم يصيح يا (فلان...)، وآخر يهْتِفُ: يا

(١) الألوسي، "روح المعاني"، ٦: ٩٣.

(فلان)...إلخ، وكان فيهم رجلٌ موحِّدٌ ضاق بهم ذرعاً فقال: يَارَبِّ أغْرِقْ أغْرِقْ، ما بقي أحَدٌ يعرِفُك!"[(١)].

ولا يشك عاقل أنّه وإن ادّعى أولئك الإسلام فإنهم بعيدون عن توحيد رب العالمين وإخلاص العمل والدعاء له في كل حين. نسأل الله العافية، وأن يهدي مَن ضلّ عن سبيله.

المطلب الثالث: دعاء الكافرين في مواجهة الأنبياء

من الأحوال الدنيوية التي ذُكِر في القرآن الكريم أنّ الكافرين يدعون ربّهم حين حصولها ما يكون عند مواجهتهم لأنبيائهم واستهزائهم بهم، فدعاء كفار البشر في مثل هذه الأحوال فيه تعجيزٌ لأنبيائهم، ومبالغة في تكذيبهم؛ وذلك إنما هو من طغيانهم ومكابرتهم.

ومن تلك المواضع التي ذكر الله تعالى في كتابه أنّ الكافرين دعوا ربّهم في مواجهة نبيِّهم قولُ الله تعالى عن الكافرين الذين كذّبوا نبيّنا محمداً ﷺ: ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وهذا مِن عتوِّ الكافرين الذين كذّبوا بنبوّة رسول الله محمد ﷺ، وبما جاء به، فإنهم حين يسمعون القرآن يُتلى يزعمون أنه كلام بشر، بل ويجزمون بذلك داعين الله بقولهم: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ

---

(١) رضا، "تفسير المنار"، ١١: ٢٧٧.

مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾،
"والمعنى أنّ القرآن إن كان حقّاً مُنزلاً مِن عندك فأمطر علينا الحجارة عقوبةً على إنكارنا، أو ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ سِواه، والمرادُ منه التهكُّمُ، وإظهارُ اليقينِ والجزم التامِّ على أنه ليس كذلك"(١).

ودعاء الكافرين الوارد في هذه الآية جاء ذكره بعد أن عرض الله تعالى حالا من أحوالهم حيث إنهم رموا النبيّ ﷺ بالكذب على الله، واتّهموه أنّ ما جاءهم به ليس إلّا من أساطير الأولين، أخذها من علماء أهل الكتاب، وأنهم لو شاؤوا أن يجيئوا بمثل ما جاءهم به لفعلوا؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[الأنفال: ٣١]، ولم يقفوا عند هذا الحدّ من التكذيب والعناد، بل زادوا فيه، فدعوا الله أن يمطر عليهم حجارة من السماء أو يأتيهم بعذاب أليم، وكان الأولى لهم والأجدر بهم أن يسألوا الله الهداية للحق، بدل أن يستفتحوا بالعذاب، ولكنه الجهل وعمى البصائر والضلال.

(١) أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٤: ٤٧.

وهذا الدعاء وإن كان صدر من بعضهم[١] إلا أنّ القرآن قد نسبه إلى جميعهم، فكأنهم كلهم دعوا بذلك، والمشار إليه بهذا في قولهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ هو القرآن وشرع محمد ﷺ.

والذي حملهم على هذه المقالة استبعادهم أن يكرم الله عليهم محمدا ﷺ هذه الكرامة، فقالوا هذه المقالة كما يقول الإنسان مستبعداً لحصول أمر: إن كان كذا وكذا ففعل الله بي وصنع، وقيل: إنّ هذه المقالة خرجت مخرج العناد مع علمهم بأنه حق[٢]، وأيّاً ما كان الباعث لهم على قولها فإنّ دعاءهم على أنفسهم يدلّ على ضعف عقولهم، وإمعانهم في الكفر والضلال، والسخرية بالنبي الكريم، الذي كان وجوده ﷺ بينهم مانعاً من نزول العذاب بهم، وعدم إجابتهم لما استعجلوه من العقوبة؛ حيث قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

ومن دعاء الكافرين اللهَ تعالى في مواجهة أنبيائهم ما ذكر الله عنهم بقوله سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾

---

(١) أكثر المفسرين على أنها نزلت في النضر بن الحارث، ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ١٣: ٥٠٥، والسمرقندي، "بحر العلوم"، ٢: ١٩، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٢: ٢٦١، وابن عطية، "المحرر الوجيز"، ٢: ٥٢٠.

(٢) ينظر: ابن عطية، "المحرر الوجيز"، ٢: ٥٢٠.

[ص: ١٦]. أي: وقال هؤلاء المشركون بالله من قريش: يا ربنا عجل لنا كتبنا قبل يوم القيامة، والقطّ في كلام العرب: "القسط من الشيء؛ لأنه قطعة منه، من قطه إذا قطعه. ويقال لصحيفة الجائزة: قط؛ لأنها قطعة من القرطاس"(١)، فهؤلاء القوم سألوا ربهم تعجيل أنصبتهم من الخير أو الشر في الدنيا قبل يوم القيامة استهزاء بوعيد الله، وإنكاراً للبعث والجزاء، وقد أخبر الله عن هؤلاء المشركين أنهم سألوه تعجيل ذلك لهم، ثم أتبع ذلك قوله لنبيه محمدٍ ﷺ: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[ص: ١٧]، فكان معلوما بذلك أنّ دعاءهم ذلك ما دعوا به ربّهم إلا على وجه الاستهزاء منهم برسوله ﷺ، ولو لم يكن كذلك لما أمر النبي ﷺ بالصبر عليه حتى يأتيه قضاؤه فيهم(٢)، "وذلك لأنّ القوم كانوا في نهاية الإنكار للقول بالحشر والنشر، فكانوا يستدلّون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوّته"(٣).

---

(١) الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٧٧.

(٢) الطبري، "جامع البيان"، ٢١: ١٦٥، والسمرقندي، "بحر العلوم"، ٣: ١٦١، والقيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، ١٠: ٦٢١٢، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٤: ٤٢٨، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ١٥: ١٥٨، وابو حيان، "البحر المحيط"، ٩: ١٤٥، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٧: ٥٧، وابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٢٣: ٢٢٥.

(٣) الرازي، "تفسير الرازي"، ٢٦: ٣٧٣.

ومن دعاء الكافرين الله تعالى في مواجهة أنبيائهم واستعجالهم العذاب -أيضاً- ما جاء ذِكره في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ [المعارج: ١]، أي: دعا داع، واستعجل وقوع العذاب بالكافرين، مع أنه سيقع بهم هذا العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، فبين الله أنه سيقع على الكافرين لا محالة، سواء في الدنيا أو في الآخرة، وسواء طُلِب أم لم يُطلب، ولا يستطيعون دفعه وردّه حين وقوعه، لا هُمْ ولا غيرهم؛ كما قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ [المعارج: ٢] [١].

ولم تذكر الآية الكريمة اسم هذا السائل، بل جاءت به منكّرا هكذا: (سائِلٌ)؛ لأنه لا يعدو أن يكون واحداً من أولئك الكافرين السفهاء[٢]، فأخفي تعيينه تحقيراً لشأنه.

(١) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ٢٣: ٥٩٦، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٦: ٤٤، والزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٦٠٨، وابن عطية، "المحرر الوجيز"، ٥: ٣٦٤، والرازي، "تفسير الرازي"، ٣٠: ٦٣٧، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ١٨: ٢٧٨، والبيضاوي، "أنوار التنزيل" ٥: ٢٤٤، والكلبي، "التسهيل لعلوم التنزيل"، ٢: ٤٠٩، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٨: ٢٢٠، والشوكاني، "فتح القدير"، ٥: ٣٤٤، والسعدي، "تيسير الكريم الرحمن": ٨٨٥.

(٢) ينظر: الخطيب، عبد الكريم بن يونس. "التفسير القرآني للقرآن". (ط١،

وسؤال الكافرين هذا سؤال تعجيزٍ للنبي ﷺ، ودعاؤهم بتعجيل العذاب إمعانٌ في استبعاده، ومبالغةٌ في إنكاره، وقد كان كُفّار يستهزئون فيسألون النبي ﷺ: متى هذا العذاب الذي تتوعدنا به، ويسألونه تعجيله، قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يونس: ٤٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾[الحج: ٤٧][1].

ومن أدعية الكافرين ربّ العالمين استهزاءً بأنبيائهم وتعجيزاً لهم ما ذُكِر في قوله تعالى عن قوم سبأ: ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾[سبأ: ١٩]. ودعاؤهم هذا جاء بعد أنْ مَنّ الله عليهم بما مَنّ، مِن سعة الأرزاق، وطيب البلد، ورغد العيش، والأمن مِن الخوف، واقتراب المدن، وتيسير الأسفار، ولكنهم لم يشكروا تلك النعم، "فأعرضوا عن المنعم، وعن عبادته، وبطروا النعمة، وملّوها، حتى إنهم طلبوا وتمنّوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسِّرا"[2]، وقالوا: ﴿ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾!.

القاهرة: دار الفكر العربي، غير محدد لسنة الطبع)، ١٥: ١١٥٦.

(١) ينظر: ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٣٩: ١٥٣.

(٢) السعدي، "تيسير الكريم الرحمن": ٦٧٧.

قال ابن عاشور –عند تفسير هذه الآية-: "والأظهر عندي أن يكون هذا القول قالوه جواباً عن مواعظ أنبيائهم والصالحين منهم حين ينهونهم عن الشرك، فهم يعِظونهم بأنّ الله أنعم عليهم بتلك الرفاهية وهم يجيبون بهذا القول إفحاماً لدعاة الخير منهم، على نحو قول كفار قريش: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[الأنفال: ٣٢]"[١].

فتواطأت مواقف الكفّار مِن أنبيائهم، وجعلوا مِن تكذيبهم لأنبيائهم يدعون الله استعجالاً بالعذاب، وذلك سخرية منهم واستهزاء بأولئك الأنبياء الكرام، عليهم الصلاة والسلام.

ومِن دعاء الكافرين في مواجهة الأنبياء ما كان من إبليس رأس الكفر وداعيته الأول؛ حيث أخبر الله عنه في مواضع من القرآن أنه دعا ربّه في مواجهة آدم عليه السلام، وذلك بعدما أمره الله بالسجود له فامتنع كِبْراً وكُفراً؛ قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة: ٣٤].

ودعاؤه الذي كان مراده به مواجهة آدم عليه السلام وذريّته وإغواءهم ذُكِر في مثل قول الله تعالى –مُخبِراً عن إبليس-:﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤]. قال الطبري: "وهذه أيضًا جَهْلة أخرى

(١) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٢٢: ١٧٦.

من جَهَلاته الخبيثة، سأل ربه ما قد علم أنه لا سبيل لأحد من خلق الله إليه، وذلك أنه سأل النَّظِرة إلى قيام الساعة، وذلك هو يوم يبعث فيه الخلق، ولو أعطي ما سأل من النَّظِرة، كان قد أعطي الخلودَ وبقاءً لا فناء معه، وذلك أنه لا موت بعد البعث، فقال جل ثناؤه له: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الحجر: ٣٧ - ٣٨]، وذلك إلى اليوم الذي قد كتب الله عليه فيه الهلاك والموت والفناء، لأنه لا شيء يبقى فلا يفنى، غير ربِّنا الحيِّ الذي لا يموت...، فإن قال قائل: فإن الله قد قال له إذ سأله الإنظار إلى يوم يبعثون: ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥]، في هذا الموضع، فقد أجابه إلى ما سأل؟، قيل له: ليس الأمر كذلك، وإنما كان مجيبًا له إلى ما سأل لو كان قال له: إنك من المنظرين إلى الوقت الذي سألت، أو: إلى يوم البعث، أو: إلى يوم يبعثون، أو ما أشبه ذلك، مما يدل على إجابته إلى ما سأل من النظرة، وأما قوله: ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾، فلا دليل فيه لولا الآية الأخرى التي قد بيَّن فيها مدة إنظاره إياه إليها، وذلك قوله: ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾"[1]، وقد قيل في معنى

---

(١) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ١٢: ٣٣٠، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ٧: ١٧٣، والبيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ٧، وأبو حيان، "البحر المحيط"، ٥: ١٩، وأبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٣: ٢١٧،

الوقت المعلوم: هو النفخة الأولى في الصور التي يُصعق لها من في السماوات ومن في الأرض من المخلوقين، وقيل: بل أحاله على وقت معلوم عنده ﷻ يريد به يوم موت إبليس وحضور أجله دون أن يعيَّن له ذلك، وإنما تركه في عماء الجهل به ليغمه ذلك ما عاش.

وذهب ابن عاشور إلى أنّ دعوة إبليس تلك لم تستجب، فقال: "وقد أفاد التأكيد بإِنَّ والإِخبار بصيغة ﴿ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ أَنَّ إنظاره أمْرٌ قد قضاه اللّه وقدَّره مِن قَبْلِ سؤاله، أي: تحقق كونُك من الفريق الذين أُنْظِروا إلى يوم البعث، أي أنّ الله خلق خلقاً وقدّر بقاءهم إلى يوم البعث، فكَشف لإبليس أنه بَعضٌ مِن جُملة الْمُنظرين مِن قبل حدوث المعصية منه، وإنّ اللّه ليس بمغيِّرٍ ما قدّره له، فجواب الله تعالى لإبليس إخبارٌ عن أمرٍ تحقّق، وليس إجابةً لِطِلْبَةِ إبليس، لأنه أهون على الله مِن أن يجيب له طلباً، وهذه هي النكتة في العدول عن أن يكون الجواب: أنظَرْتُك أو أَجَبْتُ لك، مما يدل على تَكْرِمَةٍ باستجابة طلبه، ولكنه أعلمه أنّ ما سأله أمرٌ حاصِل، فسؤاله تحصيل حاصل"[(١)].

وعلى كل حالٍ، فإن كان الله تعالى قد أجاب دعاء إبليس ذلك أو لم يُجِبه، فإنّ في إنظاره إلى يوم الوقت المعلوم لله تعالى ابتلاءً للعباد،

والشوكاني، "فتح القدير"، ٢: ٢١٩، والألوسي، "روح المعاني"، ٤: ٣٣١، والشنقيطي، "أضواء البيان"، ٢: ١١.

(١) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٨: ٤٥.

وفي مخالفتهم لإبليس أعظم الثواب، وحُكْمُه حُكْمُ ما خَلَق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركّب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده[1].

المطلب الرابع: دعاء الكافرين على أنفسهم.

مِن أعجبِ الأمور أنْ يدعو المخلوق على نفسه بأن يصيبه الله بالسوء أو يرفع عنه ما وهبه من العافية والدعة؛ ولكن الكافر انطمست بصيرته، وأوبق نفسه، فخسر دنياه وآخرته، وقد ذكر الله تعالى في كتابه طرفاً من دعاء الكافرين على أنفسهم، واستعجالهم حلول العقاب بهم، وبيّن ﷻ أنّ هذا الحال هو حال الكافرين عموماً؛ فقال سبحانه: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾ [الإسراء: ١١]، أي: ويدعو الإنسان على نفسه وولده وماله بالشرّ عند ضجره وغضبه، فيقول: اللهمّ أهلكه ونحو ذلك، كدعائه بالخير: يقول: كدعائه ربه بأن يهب له العافية، ويرزقه السلامة في نفسه وماله وولده، فلو استجيب له في دعائه على نفسه وماله وولده بالشرّ كما يستجاب له في الخير هلك، ولكن الله بفضله لا يستجيب له في ذلك، وهو

(١) ينظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٩١، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٣: ٣٩٣، والشوكاني، "فتح القدير"، ٢: ٢١٩، والسعدي، "تيسير الكريم الرحمن": ٢٨٤.

كقول الله تعالى: ﴿ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ ﴾[يونس: ١١][(١)].

والمراد بالإنسان في مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِ ﴾ [الإسراء: ١١]، الإنسان الكافر الذي لا يؤمن بالآخرة، وهو كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ ﴾ [مريم: ٦٦ - ٦٧]، وإطلاق الإنسان على الكافر ورد في عدة مواضع من القرآن، فيدعو الكافر بالعذاب استهزاء ويستعجل به، كما يدعو بطلب الفرَج إذا مسّته الشدّة[(٢)].

---

(١) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ١٧: ٣٩٣، والسمرقندي، "بحر العلوم"، ٢: ٣٠٣، والقيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، ٦: ٤١٥٣، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٣: ٢٢٢، والبغوي، "معالم التنزيل"، ٣: ١٢٣، والزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٦٥١، وابن عطية، "المحرر الوجيز"، ٣: ٤٤١، والرازي، "تفسير الرازي"، ٢٠: ٣٠٤، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٥: ٤٩، وأبو حيان، "البحر المحيط"، ٧: ١٩، والألوسي، "روح المعاني"، ٨: ٢٣.

(٢) ينظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٦٥١، وابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ١٥: ٤٢، ولفظ (الإنسان) إذا أطلق فلا يراد به الكافر على كل حال، بل السياق هو الذي يحدد هل المراد به الإنسان الكافر، أم يشمل المسلم

ومِن أمثلة دعاء الكافرين على أنفسهم التي ذُكِرت في القرآن الكريم ما دعا به قوم سبأ حين سألوا الله أن يباعد بين أسفارهم بعد أن أنعم الله عليهم وجعل بينهم وبين قُرى الشام قُرىً متصلة متقاربة، فلم يشكروا ربهم، بل سألوه أن تكون القرى والمنازل بعضها أبعد من بعض!، وقد أخبر الله عن دعائهم ذلك بقوله تعالى: ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [سبأ: ١٩]، فقولهم: ﴿ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾[1]، يعنون به: فاجعل بيننا وبين الشام فلواتٍ

والكافر. قال الرازي: "اختلفوا في الإنسان في قوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ ﴾ [يونس: ١٢]، فقال بعضهم: إنه الكافر، ومنهم من بالغ وقال: كل موضع في القرآن ورد فيه ذكر الإنسان، فالمراد هو الكافر، وهذا باطل؛ لأن قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ ﴾ [الانشقاق: ٦ - ٧]، لا شبهة في أن المؤمن داخل فيه، وكذلك قوله: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ [الإنسان: ١]...، فالذي قالوه بعيد، بل الحق أن نقول: اللفظ المفرد المحلّى بالألف واللام حكمه أنه إذا حصل هناك معهود سابق انصرف إليه، وإن لم يحصل هناك معهود سابق وجب حمله على الاستغراق صوناً له عن الإجمال والتعطيل. ولفظ الإنسان هاهنا لائق بالكافر؛ لأن العمل المذكور لا يليق بالمسلم البتة". الرازي، "تفسير الرازي"، ١٧: ٢٢١.

(١) وهذا على قراءة ابن كثير وأبي عمرو وهشام: {رَبَّنا} بالنصب على أنه نداء، وقرؤوا: {بَعِّدْ}، بكسر العين المشدّدة بلا ألف، مِنَ التَّبْعِيدِ، وَقَرَأَ الباقون غير

ومفاوز، لنركب فيها الرواحل، ونتزود معنا فيها الأزواد، وهذا من الدلالة على انّ القوم بطِروا نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، وسئموا مِن طيب العيش، وجهلوا بمقدار العافية، فطلبوا النصب والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المنّ والسلوى. قال تعالى عن قوم سبأ: ﴿ وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾، أَي: بترك الشُّكْر وسؤال المشقّة والكدح في المعيشة، إذ تمنّوا طول الأسفار وبعد الديار، ولقد عجّل لهم ربهم الإجابة، وأعطاهم ما رغبوا إليه فيه وطلبوا من المسألة، حيث قال تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾، أي: أَحَادِيث فِي الْقُرُون الَّتِي تَأتي، وفرقناهم وبددناهم كل مُفرَّق ومُبَدَّد[1].

يعقوب: {رَبَّنَا} كذلك على الدعاء، {باعِدْ} بالألف وكسر العين وسكون الدال، و(بَاعِدْ) و(بَعِّدْ) واحدٌ فِي المعنى، فسألوا المباعدة بين أسفارهم. وقرأ يعقوب: {رَبُّنَا} بالرفع، {بَاعَدَ} بفتح العين والدال على الخبر، على أنه شكوى منهم لبعد سفرهم. ينظر: ابن زنجلة، "حجة القراءات": ٥٨٨، وابن الجزري، "تحبير التيسير في القراءات العشر": ٥١٦، والدمياطي، "إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر": ٤٥٩.

(١) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ٢٠: ٣٨٩، والسمرقندي، "بحر العلوم"، ٣: ٨٧، والقيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، ٩: ٥٩١٧، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٤: ٣٢٨، والزمخشري، "الكشاف"، ٣: ٥٧٧، والرازي، "تفسير الرازي"، ٢٥: ٢٠٢، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ١٤: ٢٩٠، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٦: ٥٠٩، والشوكاني، "فتح القدير"، ٤: ٣٦٩، والألوسي، "روح المعاني"، ١١: ٣٠٤.

ومما ذكر في القرآن الكريم أيضاً مِن دعاء الكافرين على أنفسهم ما تقدّم[1] مِن أنّ بعض الكافرين دعوا على أنفسهم في مواجهة الرسل عناداً واستكباراً واستبعاداً للعذاب؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾ [الإسراء: ١١]، وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وقوله ﷻ: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص: ١٦]، وغير ذلك من الآيات.

وقد حذّر النبي ﷺ من سلوك سبيل الكافرين في الدعاء على النفس أو الولد أو المال، فقال ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خَدَمِكُم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافِقوا من الله تبارك وتعالى ساعة نيلٍ فيها عطاء فيستجيب لكم»[2].

وبيّن ﷺ سوء عاقبة الدعاء على النفس بتعجيل العذاب؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: "إنّ رسول الله ﷺ عاد رَجُلاً من المسلمين قد

(١) في المطلب السابق.

(٢) رواه أبو داود في سننه، كتاب: الصلاة، باب: النهي عن أن يدعو الإنسان على أهله وماله:(٢/٨٨)، برقم(١٥٣٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود:(١/٤١٩)، برقم(١٥٣٢)، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

خَفَتَ[(١)]، فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إيّاه؟»، قال: نعم، كنت أقول: اللهمّ ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجّله لي في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله!، لا تطيقه أو لا تستطيعه، أفلا قلت: اللهمّ آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». قال: فدعا الله له فشفاه"[(٢)].

المطلب الخامس: دعاء الكافرين إذا رأوا بعض العلامات الكبرى لقيام الساعة.

مِن دعاء الكافرين الذي ذُكِر في القرآن الكريم ما يكون مِن سؤالهم الله ﷻ كشف بعض ما يحصل لهم من العذاب قبل يوم القيامة، وهو قولهم: ﴿ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الدخان: ١٢]، وهذا العذاب الذي يسألون كشفه هو الدخان المذكور في قوله تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الدخان: ١٠ - ١١]، وهو آية من آيات

(١) أي: ضعُف وذهبت قوته. ينظر: النووي، يحيى بن شرف. "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج". (ط٢، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا:(٢/٨٨)، برقم(٢٦٨٨)، .

الله، مرسلة على عباده قبل مجيء الساعة، فيدخل في أبصار وأسماع أهل الكفر به، ويعتري أهل الإيمان به كهيئة الزكام، وهذا على أحد القولين في تفسير الآية(1).

فيدعوا الكافرون الذين يرون ذلك الدخان ربَّهم ﷻ سائلين كشف ذلك الدخان عنهم، ويقولون: إنك إن كشفته آمنا بك وعبدناك من دون كلّ معبود سواك، فيكشف الله عنهم ذلك العذاب بعد ظهور تلك العلامة الدالة على قرب قيام الساعة، وبعد أن ادعى الكافرون الإيمان؛ ولكنهم يعودون إلى كفرهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الدخان: ١٥]، ثم ينتقم الله منهم عند قيام الساعة، كما قال سبحانه: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان: ١٦] (2)، وقيل: إنّ معنى قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا

(١) القول الثاني في معنى الدخان المذكور في قوله تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان: ١٠]، هو ما أصاب قريشاً من الجهد بدعاء النبي ﷺ عليهم، وما لقوه بسبب ذلك من قحطٍ وجوعٍ، فصاروا يرون بين السَّماء والأرض كالدُّخان. تنظر: المراجع في الحاشية التالية.

(٢) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ٢٢: ١٦، والسمرقندي، "بحر العلوم"، ٣: ٢٦٨، والقيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية، ١٠: ٦٧٢٦، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٥: ١٢٣، والزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٢٧٢، وابن عطية، "المحرر الوجيز"، ٥: ٦٩، والرازي، "تفسير الرازي"، ٢٧: ٦٥٦،

كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ ﴾ أي: "إنّا مُؤخِّرو العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه مِن الطغيان والضلال، ولا يلزم مِن الكشف عنهم أن يكون باشَرهم؛ كقوله تعالى: ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس: ٩٨]، ولم يكن العذاب باشرهم واتّصل بهم، بل كان قد انعقد سببه ووصوله إليهم"[(١)].

وعلى كلٍّ فقد نصّت الآيات المذكورة هنا من سورة الدخان على أنّ الدخان نوعٌ من العذاب الذي يصيب الكافرين وأنّهم حال نزوله بهم يضرعون إلى الله بالدعاء.

وقد عدّ العلماء وقوع الدخان من العلامات الكبرى لقرب قيام الساعة، استدلالاً بهذه الآية، وبما جاء في بعض الأحاديث؛ كحديث حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ قال: كان النّبيُّ ﷺ فِي غُرْفَةٍ وَنحن أسفل منه، فاطّلع إلينا، فقال: ما تذْكُرون؟ " قلنا: الساعة، قال: «إِنّ الساعة لا تكون حتى تكون عشْرُ آياتٍ: خَسْفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب،

وأبو حيان، "البحر المحيط"، ٩: ٣٩٩، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٧: ٢٤٧.

(١) ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٧: ٢٥٠.

وخسفٌ في جزيرة العرب والدُّخان،...» الحديث[1]، وغيره من الأحاديث.

المطلب السادس: دعاء الكافرين عند الموت.

إذا وقع الموت بالإنسان فقد أقبل على الآخرة وأدبر عن الدنيا، وقد تقرّر فيما سبق أنّ الكافرين يلجؤون إلى دعاء الله تعالى عند نزول الشدائد بهم، وأعظم شدّة تحصل للإنسان وأكبر مصيبة تحل به هي مصيبة الموت، فإذا عاين الكفار الموت وأيقنوا بمفارقة الحياة فزعوا إلى دعاء الله ﷻ، وسألوه أن يمهلهم، ويؤجّل قبض أرواحهم، زاعمين أنهم سيتوبون ويعملون عملاً صالحاً ويُصلِحون ما أفسدوا إذا أعيدوا للدنيا وأُجِّلت آجالهم ومُدّ في أعمارهم، وقد بيّن الله حالهم ذلك وسؤالهم إياه عند نزول الموت بهم بقوله سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، أي: حتى إذا جاء أحدَ هؤلاء المشركين الموتُ، وعاين نزول أمر الله به، قال:- لعظيم ما يعاين مما يَقْدم عليه من عذاب الله تندّما على ما فات، وتلهُّفا على ما فرط فيه قبل ذلك، من طاعة الله ومسألته للإقالة-: ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾ إلى الدنيا فردّوني إليها، ﴿ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾المؤمنون: ١٠٠، أي: كي

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في الآيات التي تكون قبل الساعة: (٤/٢٢٢٦)، برقم(٢٩٠١).

أعمل صالحاً فيما تركت قبل اليوم من العمل فضيعته، وفرّطت فيه، فيقول الله له: ﴿كَلَّآ﴾ أي: ليس الأمر على ما قال هذا المشرك مِن إمكان رجوعه إلى الدنيا إذا حضره الموت، فلن يُرْجع إلى الدنيا، ولن يعاد إليها ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾المؤمنون: ١٠٠، أي: هذه الكلمة، وهي قوله: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ كلمة هو قائلها، أي: هذا المشرك يقولها، ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه؛ ولكن لا تنفعه ولا تُجاب دعوته حينئذ، وهو أيضا غير صادق في ذلك، فإنه لو رُدّ لعاد لما نهي عنه، ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، أي: ومن أمامهم حاجز يحجز بينهم وبين الرجوع، يعني ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، مِن قبورهم، وذلك يوم القيامة(١).

---

(١) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ١٩: ٦٩، والسمرقندي، "بحر العلوم"، ٢: ٤٩٠، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٣: ٤٨٩، والزمخشري، "الكشاف"، ٣: ٢٠٣، وابن عطية، "المحرر الوجيز"، ٤: ١٥٦، والرازي، "تفسير الرازي"، ٢٣: ٢٩٢، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ١٢: ١٤٩، والبيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٤: ٩٥، والكلبي، "التسهيل لعلوم التنزيل"، ٢: ٥٧، وأبو حيان، "البحر المحيط"، ٧: ٥٨٤، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٥: ٤٩٣، وأبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٦: ١٤٩، والشوكاني، "فتح القدير"، ٣: ٥٨٩، والسعدي، "تيسير الكريم الرحمن"، ٥٥٩، وابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ١٨: ١٢٣.

فذكر الله تعالى أنّ مِن مواضع دعاء الكافرين هو ما يكون من عند حصول الموت بهم من طلبهم الإمهال والرجوع إلى الدنيا؛ لكنه بيّن أنه لا يجيب دعاء أولئك الكافرين عند احتضارهم، بل ولا غيرهم؛ كما قال تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون: ١٠ - ١١]، فقرّر سبحانه في غير موضعٍ مِن كتابه أنّ الأجل إذا جاء أحداً فإنه لا يؤخّر، ولا تجاب له دعوة حينئذٍ؛ لأنّه تعالى أمهل عباده قبل ذلك، فمن بادر في حياته بالإيمان والعمل الصالح فاز، ومن فرّط حتى جاءه الموت فقد خسر، ولا ينفعه التمني حين حلول أجله، ولا دعاءه ربّه أن يمهله.

المبحث الثاني: دعاء الكافرين في الآخرة

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: دعاء الكافرين عند قيام الساعة

ذكر الله ﷻ في كتابه الكريم شيئاً من أهوال يوم القيامة، وبيّن أحوال الكافرين في ذلك اليوم العظيم، ومن تلك الأحوال أنّ الكافرين يُحشرون إلى جهنم عُمياً؛ كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]، وقد اختُلِف في صفة العمى الذي ذكر الله في هذه الآية وأمثالها أنه يبعث هؤلاء الكفار يوم القيامة به، فقيل: ذلك عمى عن الحجة، لا عمى عن البصر، وقيل: يحشر أعمى البصر، ورجّح الطبري أن المقصود عمى البصيرة والبصر معا؛ فقال: "والصواب من القول في ذلك ما قال الله تعالى ذكره، وهو أنه يحشر أعمى عن الحجة ورؤية الشيء كما أخبر جلّ ثناؤه، فعمّ ولم يخصِّص"(١)، فيسأل الواحد من أولئك الكافرين عندئذٍ ربَّه لم حشره أعمى مع أنه كان في الدنيا مبصرا، ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ

(١) الطبري، "جامع البيان"، ١٨: ٣٩٥.

حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [طه: ١٢٥]، أي: أي: كنت في الدنيا بصيراً بحجتي رائياً للأشياء، فيقول الله حينئذ له: ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: ١٢٦]، أي: فعلت ذلك بك، فحشرتك أعمى كما أتتك آياتي، وهي حججه وأدلته وبيانه الذي بيَّنه في كتابه، ﴿ فَنَسِيتَهَا ﴾ أي: فتركتها وأعرضت عنها، ولم تؤمن بها، ولم تعمل. وعنى بقوله ﴿ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ﴾ هكذا أتتك. وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ أي: فكما نسيت آياتنا في الدنيا، فتركتها وأعرضت عنها، فكذلك اليوم ننساك، فنتركك في النار[1].

فسؤال الكافر ربّه يوم القيامة عن سبب حشره أعمى يحتمل – والله أعلم– تَضَمُّنَ دعائه إيّاه رَفْعَ ذلك العمى؛ لأنّ مقصوده إذ ذاك هو أن يكون بصيرا كما كان في الدنيا بصيرا، لكن الله تعالى لا يجيبه لسؤاله ذلك، فلا يكون الكافر في القيامة بصيرا إلا وقت مشاهدته للعذاب وأهوال يوم القيامة، ووقت قراءته كتابه، فإنّ الله يزيل ذلك العمى عنه فيرى أهوالَ القيامة، ويشاهد مقعدَه من النار، ويكون ذلك

(١) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ١٨: ٣٩٦، والسمرقندي، "بحر العلوم"، ٢: ٤١٦، والقيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، ٧: ٤٧١٤، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٣: ٣٦٢، وابن عطية، "المحرر الوجيز"، ٤: ٦٨، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٥: ٣٢٤.

له عذاباً فوق العذاب، وكذا البَكَم والصمَمُ يزيلهما الله تعالى عن الكافرين في بعض أجزاء ذلك اليوم فيتكلمون ويسمعون، كما قال تعالى: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: ٣٨][(١)].

ومِن دعاء الكافرين يوم القيامة: ما يكون حين يعاينون أهوال ذلك اليوم، ويتيقّنون وقوع العذاب بهم، حيث يلجؤون إلى دعاء الله تعالى، فيسألونه التأخير والإمهال، ويطلبون الرجوع إلى الدنيا ولو فترة يسيرة ليعبدوا الله كما أمرهم، ويجيبوا دعوته، ويتبعوا رسله، ولكن هيهات أن تجاب دعوتهم حينئذ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية وأمثالها أن يُخَوِّف الكافرين بما يكون يَوْمَ القيامة من حلول العذاب بهم، وأنه لا ينفعهم دعاؤهم حينها أن يُرجعوا للدنيا، ولا يجيب الله دعاءهم حينئذ؛ فيقول تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾، "وَالْمُفَسِّرُونَ

---

(١) ينظر: أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٦: ٤٨، والألوسي، "روح المعاني"، ٨: ٥٨٦.

مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَة"[١]، ﴿ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ يعني: كفروا بربهم فظلموا بذلك أنفسهم ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ ﴾أي: أجِّلْنا ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ طلبوا الرجوع إلى الدنيا ولو فترة يسيرة ليعملوا فيها ما يرضي الله تعالى؛ كما قالوا: ﴿ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ أي: الإسلام الذي دعاهم الله إليه في كتبه وعلى ألسنة رسله، ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ أي: ونصدّق رسلك فنتبعهم على ما دعوتنا إليه من طاعتك واتباع أمرك، يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ ﴾ أي: حلَفْتُم وأنتم في الدنيا من قبل هذا اليوم ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ أي: لا تزولون عن الدنيا، ولا تبعثون، ولا تحاسبون[٢]. فلا ينفعهم دعاؤهم ولا توحيدهم ولا إيمانهم بالرسل يوم

---

(١) الرازي، "تفسير الرازي"، ١٩: ١٠٩.

(٢) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ١٧: ٣٥، والسمرقندي، "بحر العلوم"، ٢: ٢٤٧، والبغوي، "معالم التنزيل"، ٣: ٤٥، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٣: ١٢٣، والزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٥٦٥)، والبيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ٢٠٢، وأبو حيان، "البحر المحيط"، ٦: ٤٥٢، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٤: ٥١٦، وأبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٥: ٥٦، والألوسي، "روح المعاني"، ٧: ١٣٣، والقاسمي، "محاسن التأويل"، ٦: ٣٢١، والسعدي، "تيسير الكريم الرحمن: ٤٢٧، وابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ١٣: ٢٤٧.

القيامة، فقد ضيعّوا الفرصة التي أتيحت لهم في الدنيا، وفرّطوا في جنب الله، وعصوا رسله، فما جزاؤهم في الآخرة إلا النار، وبئس القرار.

ومن أدعية الكافرين أيضاً يوم القيامة أنهم يسألون الله تعالى أن يُرجعهم إلى الدنيا زاعمين أنّهم تحقّق إيمانهم في ذلك اليوم، وأنهم استفادوا حينها من أبصارهم وبصائرهم فرأوا بها ما لم يكونوا يرونه في الدنيا، واستفادوا من أسماعهم فسمعوا بها حينئذٍ ما يوجب لهم اليقين بكلام رب العالمين، وأنهم سيعملون أعمالاً صالحةً إذا استجاب لهم وحقق مطلبهم وأرجعهم إلى الدنيا؛ ولكن ذلك الدعاء يوم القيامة لا يجاب لهم، وتلك الوعود منهم حينها لا تشفع لهم، وإيمانهم المزعوم وقتها لا ينفعهم. وقد ذكر الله حالهم ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢]. فقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: وَلَو ترى –أيها النبي الكريم ﷺ، ويحتمل أن يكون الخطاب عاماً لكل أحد ممن يصح منه الرؤية– الْمُجْرمين وهم مُطأطِئوا رؤوسهم من فرط النَّدَم وَشدَّة الوجل، والحياء من الله ﷻ، وفي الآية حذف، والمحذوف هو: أَنَّك لَو ترى الْمُجْرمين ناكسي رؤوسهم عِنْد رَبهم لرأيت ما يُعْتَبر بِهِ. والمجرمون المقصودون هنا هم الكافرون بدليل توعُّدِ الله لهم بالنار، وبدليل قولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، فكانوا في الدنيا غير موقنين.

فالكافرون يدعون الله يوم القيامة قائلين: ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أَي: أبصرنا صِدْق وعيدِك، وسَمِعنا مِنْك تَصْدِيق رسلك، وقيل: أَبْصَرْنَا معاصينا وسمعنا ما قيل منا، ﴿ فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ أَي: ردنا إلى الدنيا لنعمل صالحا. ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أَي: مصدقون بِالْبَعْثِ[1].

فيصرِّح الكافرون يوم القيامة بالإيمان بالرسل، وأنهم قد جاؤوا بالحق من عند ربِّهم، ويسألون الشفاعة لينجوا من العذاب، ويطلبون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا، فيقولون: ﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف: ٥٣]؛ لكن ذلك الإيمان لا ينفعهم لأنه جاء في غير وقته، فقد كانوا مطالبين به في الدنيا فلم يحققوه، وتلك الدعوات لا تستجاب لهم يوم القيامة، لأنهم أشركوا بالله في الدنيا وماتوا على ذلك، فبيّن الله تعالى خسرانهم الواضح، وضياع أعمالهم المبنية على الافتراء

(١) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ٢٠: ١٧٦، والقيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، ٩: ٥٧٥٥، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٤: ٣٤٦، والبغوي، "معالم التنزيل"، ٣: ٥٩٦، والزمخشري، "الكشاف"، ٣: ٥١٠، وابن عطية، "المحرر الوجيز"، ٤: ٣٦١، والرازي، "تفسير الرازي"، ٢٥: ١٤٤، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ١٤: ٩٥، والبيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٤: ٢٢٠، وأبو حيان، "البحر المحيط"، ٨: ٤٣٥، والشوكاني، "فتح القدير"، ٤: ٢٩١، والألوسي، "روح المعاني"، ١١: ١٢٥.

على الله ﷻ حيث قال: ﴿ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٣]، فأوضح أنهم خسروا أنفسهم يوم القيامة بسبب ما كان من كفرهم في الدنيا، وهذا أعظم أنواع الخسران، كما قال تعالى: ﴿ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الزمر: ١٥]، "وقد علِم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا، لكانوا كما كانوا فيها كفّاراً يُكذِّبون آيات اللّه ويخالفون رسله، كما قال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٨]"[(١)].

ويخوّف الله ﷻ الكافرين بحقيقة ما سيؤول إليه حالهم يوم القيامة من ذلّهم لربهم، وسؤاله كشف أهوال ذلك اليوم عنهم بقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٠ - ٤١]، وقد سبق الحديث عن حال الكافرين المذكور في هاتين الآيتين ودعائهم في المطلب الثاني من المبحث الأول من هذا البحث.

---

(١) ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٦: ٣٦٢.

المطلب الثاني: دعاء الكافرين في النار

من أدعية الكافرين لرب العالمين التي ذُكِرت في القرآن الكريم ما يكون يوم القيامة مِن دعائهم حال دخولهم النار، ومن ذلك: دعاؤهم على بعضهم البعض، فيدعوا الأتْباع على مَن تسبب في إضلالهم وإغوائهم من دعاة الكفر وأئمته، ويسألون الله مضاعفة العذاب لأولئك الْمُضِلِّين، وقد أخبر الله عن دعائهم ذلك إياه يوم القيامة في قوله ﷻ: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾[الأعراف: ٣٨]، وهذا خبرٌ مِن الله ﷿ عن خطابه للكافرين يوم القيامة أنه يقول لهم حين يرِدون عليه: ﴿ٱدْخُلُواْ﴾، أي: أيها المفترون على ربكم، المكذبون رسله، ﴿فِيٓ أُمَمٍ﴾ أي: في جماعات من الكافرين ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾، أي: سبقتكم إلى دخول النار من الجن والإنس، "وقدّم ذكر الجن لأنهم أعرق في الكفر، وإبليس أصل الضلال والإغواء، وهذه الآية نص في أن كفرة الجن في النار"[1]، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ

(١) ابن عطية، "المحرر الوجيز"، ٢: ٣٩٨.

﴿أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾، أي: كلما دخلت أُمَّةٌ لعنت أُمّةً أخرى من أهل مِلّتِها ودينِها، فالمراد بأختها: المماثلة لها في الدِّين الذي أوجب لها الدخول في النار، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾، أي: حتى إذا تداركت الأمم في النار جميعاً، يعني اجتمع في النار الأوَّلون من أهل الملل الكافرة والآخِرون منهم، ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، أي: قالت أُخرى أهل كلِّ مِلّةٍ دخلت النار لأُولاها الذين كانوا قبلهم في الدنيا: ربنا هؤلاء أضلونا عن سبيلك، ودعونا إلى عبادة غيرك، وزيّنوا لنا طاعة الشيطان، فآتهم اليوم من عذابك الضعفَ على عذابنا. وقد قيل: إنّ القادة يدْخلُونَ أَولاً، فهم المعنيون بقوله: ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾، ويليهم الأتْباع في دخول النار، وهم مَن عنى الله بقوله: ﴿أُخْرَىٰهُمْ﴾، ثم يقول الله تعالى: ﴿قَالَ﴾، أي قال الله لهم: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾، أي: لكلٍّ مِن الأخرى والأولى عذاب، وللأولى عذاب متضاعف زائد، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨]. ثم قال سبحانه في هذه الآية: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، أي: ولكنكم يا معشر أهل النار لا تعلمون

ما قدْرُ ما أعدّ الله لكلٍّ منكم من العذاب، فلذلك تسأل الضعفَ منه الأمةُ الكافرةُ الأخرى لأختها الأولى(١).

ويذْكُرُ اللهُ ﷻ في مواضع أخرى من القرآن الكريم دعوات أولئك الكافرين له يوم القيامة أن يضاعف العذاب لمن أضلّهم من كبرائهم وساداتهم مِن دعاة الكفر؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٧ - ٦٨]، وقوله سبحانه: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾ [ص: ٦١]، فيدعوا الأتْباع مِن الكفار يوم القيامة على مَن أضلّهم وزيّن لهم الكفر في الدنيا، ويسألون الله تعالى أن يضاعف العذاب عليهم، تشفِّياً منهم، ونكاية بهم، وجزاءً على إغوائهم إياهم. وفي إخبار الله تعالى عن دعاء

(١) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ١٢: ٤١٥، والسمرقندي، "بحر العلوم"، ١: ٥١٤، والقيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، ٤: ٢٣٥٨، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٢: ١٨٠، والزمخشري، "الكشاف"، ٢: ١٠٣، وابن عطية، "المحرر الوجيز"، ٢: ٣٩٨، والرازي، "تفسير الرازي"، ١٤: ٢٣٨، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ٧: ٢٠٤، وأبو حيان، "البحر المحيط"، ٥: ٤٩، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٣: ٤١١، والشوكاني، "فتح القدير"، ٢: ٢٣٢، والألوسي، "روح المعاني"، ٤: ٣٥٧، وابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٨: ١٢٠.

الكافرين على مَنْ أضلّهم بقولهم: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٧]، "معنى لطيف، وهو أنّ الدعاء لا يكون إلا عند عدم حصول الأمر المدعو به، والعذاب كان حاصلاً لهم، واللعن كذلك، فطلبوا ما ليس بحاصل، وهو زيادة العذاب بقولهم: ﴿ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾"[١].

وفي موضعٍ آخر مِن القرآن الكريم يذكر الله تعالى دعاءً آخر يدعوا الكافرون به ربهم في النار ليُضاعف به العذاب لمن أضلّهم، وهو أنهم يسألونه أن يريهم أولئك الْمُضِلِّين ليأخذوهم ويجعلوهم تحتهم في دركات النار، ليذوقوا أسوأ العذاب، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت: ٢٩]. فقوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، يَعْنِي فِي النَّارِ، فذكره بلفظ الماضي والمراد المستقبل، ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾، فطلبوا من الله تعالى أن يريهم مَن أضلهم مِن فريق الجن والإنس مِن الشياطين الذين كانوا يحملونهم على المعاصي، ويهوِّنون لهم شأنها، ويزيّنون لهم الكفر، ومِن الكبراء الذين كانوا يزيّنون لهم الكفر وعبادة غير الله ﷻ، ثمّ علّلوا طلب رؤيتهم يوم

(١) الرازي، "تفسير الرازي"، ٢٥: ١٨٦.

القيامة مَن أضلهم في الدنيا بقولهم: ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾، أي: "نجعل هذين اللذَينِ أضلّانا تحت أقدامنا؛ لأنّ أبواب جهنم بعضها أسفل من بعض، وكل ما سفل منها فهو أشد على أهله، وعذاب أهله أغلظ، ولذلك سأل هؤلاء الكفار ربهم أن يريهم اللذين أضلاهم ليجعلوهما أسفل منهم ليكونا في أشد العذاب في الدرك الأسفل من النار"[(١)]، وقالوا ذلك القول حقداً على أولئك الْمُضِلِّين وانتقاماً مِنْهُم لَمّا تسببّوا في إغوائهم في الدنيا، فلم يستطيعوا التشفي منهم بأكثر مِن أنْ يسألوا مضاعفة العذاب عليهم في الدركات السفلى من النار[(٢)].

---

(١) الطبري، "جامع البيان"، ٢١: ٤٦٣.

(٢) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ٢١: ٤٦٢، والقيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، ١٠: ٦٥١٧، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٥: ٤٩، والزمخشري، "الكشاف"، ٤: ١٩٨، والرازي، "تفسير الرازي"، ٢٧: ٥٥٩، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ١٥: ٣٥٧، والبيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٥: ٧١، وابو حيان، "البحر المحيط"، ٩: ٣٠٢، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٧: ١٥٧، وأبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٨: ١٢، والشوكاني، "فتح القدير"، ٤: ٥٩٠، والألوسي، "روح المعاني"، ١٢: ٣٧٢، والقاسمي، "محاسن التأويل"، ٨: ٣٣٦، والسعدي، "تيسير الكريم الرحمن": ٧٤٨، والخطيب، "التفسير القرآني للقرآن"، ١٢: ١٣١٢.

فإذا رأى أولئك الكافرون في النار مَن أضلّهم في الدنيا أشاروا إليهم سائلين الله أن يزيدهم عذاباً، فينكر أولئك المعبودون ذلك، ويُكذِّبون مَن عَبَدَهم؛ كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [النحل: ٨٦]، أي: وإذا رأى المشركون بالله يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله من الآلهة والأوثان وغير ذلك، قالوا: ربنا هؤلاء شركاؤنا في الكفر بك، والشركاء الذين كنا ندعوهم آلهة من دونك، مدَّعين أنهم أمروهم بعبادتهم وطاعتهم في معصية الله تعالى، وإنما قالوا ذلك لطلب مضاعفة عذابهم، ﴿ فَأَلْقَوْا۟ ﴾ يعني: شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله، ﴿ ٱلْقَوْلَ ﴾، أي: قالوا لهم: ﴿ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أيها المشركون، ما كنا ندعوكم إلى عبادتنا، وقد "حشر الله ﷻ معهم أصنامهم وأوثانهم ليوبِّخهم ويعذِّبهم بها في النار"(١).

(١) القيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، ٦: ٤٠٦٦، وينظر: الطبري، "جامع البيان"، ١٧: ٢٧٥، والسمرقندي، "بحر العلوم"، ٢: ٢٨٥، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٣: ١٩٤، والزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٦٢٧، وابن عطية، "المحرر الوجيز"، ٣: ٤١٤، والرازي، "تفسير الرازي"، ٢٠: ٢٥٦، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ١٠: ١٦٣، والبيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ٢٣٧، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٤: ٥٩٣، وابن

وفي حالٍ آخر من أحوال الكافرين يوم القيامة يعترف رؤوس الكفر ودعاته بإغواء غيرهم من الكفرة؛ لكنهم يدعون الله متبرئين إليه مِن كُفْرِ غيرهم وعبادتهم إياهم، رغبةً ألّا يلحق بهم شيء مِن آثامهم، وقد أخبر الله عن حالهم ذلك ودعائهم بقوله سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص: ٦٢ - ٦٣]، فقوله تعالى:﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾، أَي: الذين وَجَبت عَلَيْهِم كلمة الْعَذَاب، وهم رؤوس الضلالة، ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ ﴾أَي: دعوناهم إِلَى الغي، ﴿ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ ﴾أَي: أضللناهم كَمَا ضللنا، و"فعلنا بهم غاية ما كان في وسع الإنسان أن يفعل بصديقه ما يريد بنفسه أي أفدناهم ما كان لنا وجعلناهم أسوة أنفسنا، وعلى هذا: ﴿ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الصافات: ٣٢]"[(١)]؛ لكنهم تبرّؤوا يوم القيامة من عبادتهم لهم في الدنيا،

عاشور، "التحرير والتنوير"، ١٤: ٢٤٧.

(١) الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد. "المفردات في غريب القرآن". تحقيق: محمد سيد كيلاني. (ط٣، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨١هـ): ٦٢٠.

فقالوا: ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ﴾، أي: منهم ومما اختاروه من الكفر، ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾، أَي: أنهم لم يعبدونا، ولكن دعوناهم فَأَجَابُوا[١].

فالذين حَقَّ عليهم القول لجؤوا "إلى الاعتراف بأنّهم أضَلُّوا الضالِّين وأَغْوَوْهُم،...وحَمَلَهم على ذلك ما يشاهدون مِن فظاعة عذاب كل مَن ادّعى المشركون له الإلهية باطلاً لَمَّا سمعوا قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]...، وظنوا أنّ ذلك الاعتراف يخفف عنهم من العذاب بقرينة قولهم تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون"[٢]. ومع اعتراف أولئك الْمُضِلِّين في النار بإغواء الكافرين في الدنيا، إلا أنهم نَفَوا أن يكون أحدٌ قد عبدهم وتبرّؤوا مِن ذلك، وهذا كذب منهم، "والمقصود: أنهم يتبرؤون مِن أن يكونوا هم المزعوم أنهم شركاء وإنما قصارى أمرهم أنهم مُضِلُّون"[٣].

---

(١) ينظر: السمعاني، "تفسير السمعاني"، ٤: ١٥١، والبغوي، "معالم التنزيل"، ٣: ٥٤١، والزمخشري، "الكشاف"، ٣: ٤٢٦، وابن عطية، "المحرر الوجيز"، ٤: ٢٩٤، والرازي، "تفسير الرازي"، ٢٥: ٩، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ١٣: ٣٠٣، والبيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٤: ١٨٢، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٦: ٢٥٠.

(٢) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٢٠: ١٥٧، بتصرف.

(٣) المرجع السابق، ٢٠: ١٥٩.

ومن دعاء الكافرين ربّهم إذا استقرّوا في النار سؤالُهم إيّاه أن يخرجهم منها؛ كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٧]، فينادي الكفار ربّهم قائلين: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾، أي: التي كتبت علينا، والتي قدرت علينا في اللوح المحفوظ، وَ ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾، أي: عن الهدى، ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ أي: من النار، وأرجعنا إلى الدنيا، ﴿ فَإِنْ عُدْنَا ﴾ أي: إلى الكفر والتكذيب، ﴿ فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾، فيأتيهم الرد من الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، أي: ابعدوا من رحمتي وعطفي، وذلُّوا فيها، وكونوا صاغرين في النار، ولا تكلموني بعد ذلك، فينقطع رجاؤهم حينئذ[(١)].

(١) ينظر: السمرقندي، "بحر العلوم"، ٢: ٤٩٠، والقيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، ٧: ٥٠٠٥، والسمعاني، "تفسير السمعاني"، ٣: ٤٩٢، والزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٢٠٤، والرازي، "تفسير الرازي"، ٢٣: ٢٩٧، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ١٢: ١٥٣، والبيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٤: ٩٦، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٥: ٤٩٨، والألوسي، "روح المعاني"، ٩: ٢٦٦، وابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ١٨: ١٢٨.

ويتلطّف الكافرون المعذّبون في النار في الدعاء، ويكررون سؤال الله ﷻ أن يخرجهم منها، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١﴾ [غافر: ١١]، "وفي هذه الآية الكريمة تلطّفوا في السؤال وقدّموا بين يدي كلامهم مُقدِّمة، وهي قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ أي: قدرتك عظيمة فإنك أحييتنا بعد ما كُنّا أمواتاً ثم أمَتّنا ثم أحييتنا فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا، ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾، أي: أي فهل أنت مجيبنا إلى أنْ تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر على ذلك ؛ لنعمل غير الذي كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون، فأُجيبوا أن لا سبيل إلى عَودِكم ومَرجِعِكم إلى الدار الدنيا، ثم علّل المنع من ذلك بأنّ سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه، بل تجحده وتنفيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ [غافر: ١٢]، أي: أنتم هكذا تكونون، وإن رُدِدتم إلى الدُّنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقوله: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾، أي: هو الحاكم

في خلقه، العادل الذي لا يجور، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو"(١).

ويؤمِّل الكافرون المعذَّبون في النار أنّ دعاءهم سيُجاب إذا رفعوا به أصواتهم، فيعلو صراخهم ويشتدُّ عويلهم، ويدعون ربهم راجين أن يخرجهم من النار؛ كما قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر: ٣٧]، فيأتيهم الردّ الذي يقطع آمالهم من الرجوع إلى الدنيا، فيقول الله ﷻ لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧]، فيعترفون في ذلك الوقت بضلالهم وكفرهم وقلة عقولهم، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: ١٠].

وعندما لا تجاب أدعية أهل النار التي سبق ذكرها يتوجهون بالنداء إلى خزنة جهنم، فيطلبون منهم أن يدعوا لهم؛ كي يخفف الله عنهم شيئاً مما يعانونه من العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾ [غافر: ٤٩]، فيأتيهم التوبيخ مِن خزنة جهنم أيضاً؛ كما قال الله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [غافر: ٥٠]، فعند ذلك

(١) ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٧: ١٣٣.

يسأل الكافرون خازن النار الشفاعة كي يهلكهم ربهم، كما قال تعالى: ﴿ وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ الزخرف: ٧٧، فيأتيهم الجواب القاطع لآمالهم في الخروج من النار أو الموت؛ ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فبقاؤكم في النار أبديّ، إنه الرفض لكل ما يطلبون، لا خروج من النار، ولا تخفيف من عذابها، ولا إهلاك، بل هو العذاب الأبدي السرمدي الدائم، ويقال لهم آنذاك: ﴿ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يس: ٦٤]، فهناك يشتد نحيبهم، وتفيض دموعهم، ويطول بكاؤهم؛ كما قال سبحانه: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [التوبة: ٨٢][1].

(١) ينظر: الأشقر، عمر بن سليمان. "الجنة والنار". (ط٧، عمّان: دار النفائس للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م): ١٠٦.

المبحث الثالث: إجابة دعاء الكافرين

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أَمْر الكافرين بدعاء الله تعالى.

أراد الله ﷻ مِن عباده جميعاً أن يوحِّدوه ويخلصوا له العبادة والدعاء، في السراء والضراء؛ لذا فقد أمرهم بدعائه، ووعدهم إجابته، وقدّر عليهم من الأقدار ما يوجب سؤاله، وذلك لضعف العباد وحاجتهم إلى ربِّهم في كل حال. قال سبحانه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٢- ٤٣]، أي: أصاب الله ﷻ الأمم بأنواع من العذاب الدنيوي في الأبدان والأموال، كالضر، والقحط، والجوع، والمرض، ونقصان الأموال والأنفس والثمرات، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾، والتضرّع هو: التذلل بالطاعة والتخشّع[1]، ومن معاني التضرع أيضاً: الاستكانة

(١) ينظر: الطبري، "جامع البيان"، ١١: ٣٥٥، وابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٧: ٢٢٧.

والسُّؤَال بالتذلل، وفلَان يتَضَرَّع، أَي: أَنه سَأَلَ متذللا[١]، فمعنى قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أَي: يَدْعُون الله ليكشف عنهم البأساء والضراء، ويذِلُّون له، ويتوبون من كفرهم ومعاصيهم[٢]، ثم قال سبحانه: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾، فنفى التضرع عنهم، كأنه قيل: فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا، "وفي هذا تسليةٌ للرّسول ﷺ، وأنّ عادة الأُمم مع رسلهم التّكذيب والمبالغة في قسوَة القلوب حتى هم إذا أُخِذُوا بالبلايا لا يتذلّلون للّه ولا يسألونه كشْفها"[٣]؛ حتى قيل: إنّ الكفار في الأمم السابقة كانوا أرسخَ في الكفر مِمّن بُعِث فيهم نبيّنا ﷺ، وأشدّ منهم إصراراً على الظلم، فإنّ قومه يدعون الله تعالى وحده عند شدة الضيق، وينسون ما اتّخذوه مِن دونه مِن الأولياء والأنداد، وأمّا تلك الأُمم فلم تُلِنِ الشدائِدُ قلوبهم، ولم تُصْلِحْ ما أفسد الشيطان مِن فطرتهم![٤].

(١) ينظر: السمعاني، "تفسير السمعاني"، ٢: ١٠٣، والبغوي، "معالم التنزيل"، ٢: ١٢٣.

(٢) ينظر: القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ٦: ٤٢٥، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٣: ٢٥٦، وأبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٣: ١٣٣، والألوسي، "روح المعاني"، ٤: ٢٤٣، والسعدي، "تيسير الكريم الرحمن": ٢٥٦.

(٣) أبو حيان، "البحر المحيط"، ٤: ٥١٣.

(٤) ينظر: رضا، "تفسير المنار"، ٧: ٣٤٥.

وفي هاتين الآيتين أيضاً عِتابٌ للكافرين "على ترك الدعاء، وإخبار عنهم أنهم لم يتضرّعوا حين نزول العذاب. ويجوز أن يكونوا تضرّعُوا تضرُّع مَن لم يخلص، أو تضرّعُوا حين لابسهم العذاب، والتضرُّع على هذه الوجوه غير نافع، والدعاء مأمور به حال الرخاء والشدة، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠]، وهذا وعيد شديد، ﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الأنعام: ٤٣، أي صلُبَت وغلُظَت، وهي عبارةٌ عن الكفر والإصرار على المعصية، نسأل الله العافية، ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣]، أي: أغواهم بالمعاصي وحمَلهم عليها"(١).

وقد يُستشكل نفي تضرّع الكفار ودعائهم الله تعالى وقت نزول البأساء والضراء بهم كما في هذا الموضع، مع أنّ الله ﷻ ذكر في آيات أُخرى أنهم يخلصون له الدعاء وقت حلول الضر بهم، وأُجيبَ عن هذا مِن ثلاثة أوجه(٢):

الوجه الأول: أنّ لجوءهم إلى دعاء الله تعالى عند نزول الشدائد بهم لا يكون دائماً، بل قد يلجؤون إليه ويدعونه، وقد يعرضون عن دعائه في بعض الأحيان إمعاناً في الكفر والضلال.

(١) القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ٦: ٤٢٥.

(٢) ينظر: المرجع السابق.

قال الرازي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٣]: "اعلم أنه تعالى بين في الآية الأولى أنّ الكفار عند نزول الشدائد يرجعون إلى الله تعالى، ثم بين في هذه الآية أنهم لا يرجعون إلى الله عند كل ما كان مِن جنس الشدائد، بل قد يبقون مصرين على الكفر، منجمدين عليه، غير راجعين إلى الله تعالى"(١).

الوجه الثاني: أنّ الذين أخبر عنهم من الكافرين أنهم يلجؤون إلى الله بالدعاء وقت نزول الشدة بهم هم أقوام، والذين يعرضون فلا يدعون الله حتى عند نزول الشدة بهم أقوام آخرون منهم.

الوجه الثالث: أنّ دعاء أولئك الكفار اللهَ تعالى حين يمسّهم الضر إنما هو دعاءٌ لرفع الضر وكشف البأس، وليس صلاحاً منهم في ذلك الوقت وعودة حقيقية لربهم جل وعلا، فلذلك نُفي الدعاء، فكأنهم لم يدعوا ولم يتضرعوا.

قال الرازي: "فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ قَوْلُهُ: ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ [الأنعام: ٤١]، يدل على أنهم تضرعوا؟ وهاهنا يَقُولُ: ﴿ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنعام: ٤٣]، ولم يتضرّعوا، قلنا: أولئك أقوام، وهؤلاء أقوام آخرون، أو نقول:

(١) الرازي، "تفسير الرازي"، ١٢: ٥٣٣.

أولئك تضرّعوا لطلب إزالة البليّة ولم يتضرّعوا على سبيل الإخلاص لله تعالى، فلهذا الفرق حسن النفي والإثبات"(١).

ويمكن أن يضاف إلى هذه الأوجه **وجهٌ رابعٌ**، وهو: أنهم إذا فوجئوا بعذاب يبغتهم فإنهم يلجؤون إلى الله ويدعونه، أمّا إذا لم ينزل بهم العذاب دفعة واحدة، وإنما نزل بهم بلاء إثْر بلاء، فإنهم يستمرون في غوايتهم وبعدهم عن الله، ويألفون الأمن من مكره، ويحتجون بأنّ آباءهم أصيبوا بمثل ذلك فلم يؤمنوا، فهم على سننهم؛ كما أخبر الله عنهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٤ - ٩٥].

فالذي يظهر أنّ الكافرين وإنْ كانوا يلجؤون إلى الله بالدعاء الخالص في وقت نزول شدة عاجلة وعذاب مفاجئ؛ كاضطراب السفن بهم في البحر ونحوه، إلا أنهم لا يخلصون الدعاء لله وقت حصول العذاب الذي لا يأتيهم بغتة؛ كحصول قحط، أو جدب، أو جوع، أو مرض، أو هزيمة في معركة، ونحو ذلك، وقد أخبر الله تعالى بذلك عنهم

(١)الرازي، "تفسير الرازي"، ١٢: ٥٣٣.

في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

ومعنى: "﴿ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ ﴾، أَي: ما خضعوا له، ولا ذَلُّوا وما يتضرّعون أي: ما يبتهلون إليه بالدعاء متضرِّعين له، ليكشف عنهم ذلك العذاب، لِشِدّة قسوة قلوبهم، وبُعدهم مِن الاتِّعاظ"[١]، فهم لا يعودون إلى الله وقت نزول تلك الأحداث بهم، ولا يدعونه، ولا يتركون كفرهم وإشراكهم، مع أنّ الله تعالى إنما يصيبهم ببعض العذاب الدنيوي ليعودوا إليه، ويخلصوا له العبادة، ويذروا كفرهم وشركهم؛ كما قال سبحانه: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [السجدة: ٢١]، "فيذيقهم الله ﷻ مقدمات العذاب دون شدائده، تنبيهاً لهم؛ ولكنهم لا ينتبهون ولا ينزجرون، ولو أنهم إذ رأوا العذاب فزعوا إلى التضرع والابتهال لأسرع الله إزالته عنهم، ولكنهم أصرّوا على باطلهم، ليقضى الله أمرا كان مفعولاً"[٢]، ولَمَّا لم

(١) الشنقيطي، "أضواء البيان"، ٥: ٣٤٥، وينظر: السمرقندي، "بحر العلوم"، ٢: ٤٨٧، والقرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ١٢: ١٤٣، وابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٥: ٤٨٧.

(٢) القشيري، عبد الكريم بن هوازن. "لطائف الإشارات"، المسمى "تفسير القشيري". تحقيق: إبراهيم البسيوني، (ط٣، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، غير محدد لسنة الطبع)، ٢: ٥٨٣، بتصرف.

يعودوا إلى الله تعالى، ولم يخلصوا العبادة والدعاء عند إصابتهم بتلك الابتلاءات، استحقوا العذاب الأكبر الذي يستأصلهم؛ كما قال سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٧٧]، أي: "آيِسون مِن كلِّ خير"[١].

المطلب الثاني: حكم القرآن على دعاء الكافرين.

دلّت آيات القرآن الكريم الواردة في شان أدعية الكافرين على أنّ الله تعالى يجيب دعاء الكافرين إنْ شاء ذلك، فقد يدعوا الكافرون ربهم لدفع ضُرٍّ أو جلب نفع فيستجاب لهم، كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٠ - ٤١]، فبيّن سبحانه أنّ إجابة دعاء الكافرين واقعة تحت مشيئته جلّ وعلا، فإنْ شاء أجاب دعاءهم، وإنْ شاء لم يجبه، وفي كلٍّ حكمة لله تعالى[٢]، وقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ

(١) البغوي، "معالم التنزيل"، ٣: ٣٧٢.

(٢) ينظر: الرازي، "تفسير الرازي"، ١٢: ٥٣٣، والبيضاوي، "لباب التأويل"، ٢: ١١٢.

يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فبيّن أنه نجاهم، وهذا قد يُفهم منه أنه إنما نجّاهم إجابةً لدعائهم، مع علمه سبحانه أنهم سيشركون به بعد ذلك؛ لكن الله ﷻ وعد مَن دعاه أن يجيب دعوته، وخاصة المضطر الذي يسأل كشف الضر والسوء النازل به؛ كما قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢]، فلم يحدد في هذه الآية ديانة المضطر الذي يجيبه الله، فتبيّن أنّ الله يجيب كل مضطرٍّ دعاه. قال القرطبي: "ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والسبب في ذلك أنّ الضرورة إليه باللجاءِ ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة، وُجِد مِن مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم، فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه، وفي الحديث: «ثلاثُ دعَواتٍ

مُستجاباتٍ لا شكّ فيهنّ؛ دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده»[١]، وفي صحيح مسلم[٢] أنّ النبي ﷺ قال لمعاذٍ رضي الله عنه لَمَّا وجّهه إلى أرض اليمن: «واتّق دعوة المظلوم، فليس بينها وبين الله حِجاب»"[٣]؛ بل ورد في الحديث الآخر النص على أنّ الله تعالى يجيب دعوة الداعي ولو كان كافراً، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «اتّقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فإنه ليس دونها حجاب»[٤]، وهذا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده:(٢٤٣/١٤)، برقم(٨٥٨١)، وأبو داود في سننه:(٨٩/٢)، برقم(١٥٣٦)، والترمذي في سننه:(٣١٤/٤)، برقم(١٩٠٥)، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث حسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود:(٤٢٠/١)، برقم(١٥٣٦)، وكذا في صحيح سنن الترمذي:(٣٤٤/٢)، برقم(١٩٠٥).

(٢) بل الحديث في الصحيحين، فقد راوه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع:(١٦٢/٥)، برقم(٤٣٤٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام:(٥٠/١)، برقم(١٩)، كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) القرطبي، "الجامع لأحكام القرآن"، ١٣: ٢٢٣.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده:(٢٢/٢٠)، برقم(١٢٥٤٩)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وحسنه الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب":(٥٣٥/٢)، برقم(٢٢٣١).

يدل على إجابة الله لدعوة الكافر المظلوم؛ لأنّ الله يأمر بالعدل، وينهى عن الظلم، وينتصف للمظلومين وإن كانوا كفارًا؛ لكمال عدله سبحانه وتعالى. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والخلق كلهم يسألون الله مؤمنهم وكافرهم، وقد يجيب الله دعاء الكفار، فإنّ الكفار يسألون الله الرزق فيرزقهم ويسقيهم..."(١)، وقال أيضًا: "وأما إجابة السائلين فعامّ، فإنّ الله يجيب دعوة المضطر ودعوة المظلوم وإن كان كافراً"(٢).

وقد قال سبحانه مُمْتَنّاً على عباده عموماً: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، "أي: أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيكم وحاجتكم مما تسألونه إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال، من أنعام، وآلات، وصناعات وغير ذلك"(٣)،وإعطاء العباد مِن كل ما سألوه يلزم منه إجابة دعوة كل داعٍ وإن كان كافراً، ويدلُّ لهذا أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ﴾[البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢]، فأخبر الله ﷻ في هذه الآيات "عن

(١) ابن تيمية، "مجموع الفتاوى"، ١: ٢٠٦.

(٢) المرجع السابق، ١: ٢٢٣.

(٣) السعدي، "تيسير الكريم الرحمن": ٤٢٦.

أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم: ﴿ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: يسأله مِن مطالب الدنيا ما هو مِن شهواته، وليس له في الآخرة مِن نصيب، لرغبته عنها، وقصر همته على الدنيا، ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه، وكل من هؤلاء وهؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم وهماتهم ونياتهم، جزاءً دائراً بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه، وفي هذه الآية دليل على أنّ الله يجيب دعوة كل داعٍ، مسلماً أو كافراً، أو فاسقاً، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه، دليلاً على محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين"(١).

وقال بعض العلماء: إنّ دعاء الكافرين لا يُجاب؛ مستدلاً بقول الله سبحانه: ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾[الرعد: ١٤]، و[غافر: ٥٠]. "أي إِلَّا في ضياعٍ لا منفعة فيه؛ لأنّهم إنْ دعوا الله لم يُجِبْهم وإن دعواْ الآلهة لم تستطِعْ إجابَتهم"(٢)، ومعنى هذا أنّ دعاءهم يضلّ

---

(١) المرجع السابق: ٩٢.

(٢) الرازي، "تفسير الرازي"، ١٩: ٢٤، وينظر: ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٧: ١٤٩، والبقاعي، إبراهيم بن عمر. "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". تحقيق: عبدالرزاق المهدي. (ط١، بيروت: دار الكتب

فيذهب في غير طريق موصل كما كانوا هم في الدنيا كذلك، فإنّ الدنيا مزرعة الآخرة، مَن زرع شيئاً في الدنيا حصده في الآخرة، والآخرة ثمرة الدنيا لا تثمر إلا مِن جِنْسِ ما غرس في الدنيا[١]، وذلك "لأنّ الكفر مُحبِطٌ لجميع الأعمال صادٌّ لإجابة الدعاء"[٢]، فلهذا استدل بهذه الآية مَن قال: إنّ دعاء الكافر لا يستجاب، وأنه لا يُمَكَّن من الخروج في الاستسقاء[٣].

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأعراف: ٤٠]، "قال بعض العلماء: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾، لاستجابة دعواتهم؛ لأن دعواتهم مردودة"[٤].

العلمية، ١٩٩٥م)، ١٠: ٣٠٢.

(١) ينظر: البقاعي، "نظم الدرر"، ١٧: ٨٦.

(٢) السعدي، "تيسير الكريم الرحمن": ٧٣٩.

(٣) ينظر: السمعاني، "تفسير السمعاني"، ٥: ٢٥، والسيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. "الإكليل في استنباط التنزيل". تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية،١٩٨١م): ٢٢٦.

(٤) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. "العذب النّمير مِن مجالس الشنقيطيّ في التفسير". تحقيق: خالد بن عثمان السبت. إشراف الشيخ: بكر بن عبد الله أبو زيد. (ط٢، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد للنشر

وقال ابن عاشور مبيّناً دلالة اسم الإشارة في قوله سبحانه: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ﴾[البقرة: ٢٠٢]: "واسم الإشارة مُشِيرٌ إلى الناس الذين يقولون: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة: ٢٠١]، للتنبيه باسم الإشارة على أنّ اتّصافهم بما بعد اسم الإشارة شيءٌ استحقُّوه بسبب الإخبار عنهم بما قبل اسم الإشارة، أي أنّ الله استجاب لهم لأجلِ إيمانهم بالآخرة، فيُفهم منه أنّ دعاء الكافرين في ضلال"(١).

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ ﴾ [الأعراف: ٥٥]، قال: "والمراد بِـــ ﴿ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾: المشركون؛ لأنّه يرادف الظالمين، والمعنى: ادْعُوا ربكم لأنه يحبكم ولا يحب المعتدين، كقوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠ ﴾ [غافر: ٦٠]، تعريضٌ بالوعد بإجابة دعاء المؤمنين، وأنه لا يستجيب دعاء الكافرين"(٢).

والتوزيع، ١٤٢٦هـ)، ٣: ٢٤٢.

(١) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٢: ٢٤٩.

(٢) المرجع السابق، ٨: ١٧٣.

والراجح والله أعلم: هو التفريق بين دعاء الكافرين في الدنيا ودعاؤهم في الآخرة؛ ففي الدنيا قد يجيب الله تعالى أدعية الكافرين إن شاء ذلك، أما في الآخرة فلا يستجيب لدعائهم، والآيتان اللتان بُيِّن فيهما ضلال دعاء الكافرين، وهي قوله تعالى –في سورتي الرعد وغافر–: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤]، و[غافر: ٥٠]، يفهم مِن سياقهما على أنّ ذلك في الآخرة.

فهذا الدعاء الذي يضِلّ ولا يُجاب هو "دعاء الكفار يوم القيامة"(١)، وقد ذكر الله تعالى في مواضع مِن كتابه أنّ الكافرين يدعون الله في الآخرة فلا يستجيب لهم، فإنهم "يسألون الرَّجعة، فلا يُجابون عند الاحتضار، ويوم النُّشور، ووقت العرض على الجبّار، وحين يُعرضون على النار، وهم في غمرات عذاب الجحيم"(٢).

قال الألوسي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤]، و[غافر: ٥٠]: "والمراد بهذا الدعاء إن كان دعاء آلهتهم فظاهر أنه كذلك؛ لكنه فُهِمَ مِن السابق، وحينئذ يكون مُكرَّراً للتأكيد، وإن كان دعاؤهم الله تعالى فقد استشكلوا ذلك بأنّ دعاء الكافر قد يستجاب،...واستجابة دعاء إبليس وهو رأس الكفار

---

(١) الألوسي، "روح المعاني"، ١٢: ٣٢٩.

(٢) ابن كثير، "تفسير القرآن العظيم"، ٥: ٤٩٣.

نصٌّ في ذلك، وأجيب بأنّ المراد دعاؤهم الله تعالى بما يتعلق بالآخرة، وعلى هذا يحمل ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مِن أنّ أصوات الكفار محجوبة عن الله تعالى فلا يسمع دعاءهم، وقيل: يجوز أن يراد دعاؤهم مُطْلَقاً ولا يُقيّد بما أجيبوا به"[(١)].

ومال بعض العلماء إلى القول بأنّ المقصود بدعاء الكافرين الذي حُكِم عليه بالضلال في قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤]، و[غافر: ٥٠]، هو دعاء العبادة لا دعاء المسألة؛ لأنّ الكفار يدعون الله تعالى في أوقات الشدائد والأهوال ومشارفتهم الغرق في البحر فيستجيب لهم، فيكون المراد بدعاء الكافرين الذي حُكِم عليه بأنه في ضلال هو دعاء العبادة، أي: وما عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال، ويعضد هذا الرأي قوله تعالى قبله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الرعد: ١٤]، أي يعبدون[(٢)]، ولكن الذي يترجّح هو ما سبق مِن أنّ المراد بدعاء الكافرين الذي حُكِم عليه بأنه في ضلال هو دعاؤهم اللهَ ﷻ في الآخرة، أمّا أدعيتهم في الدنيا فقد يجيب الله شيئاً منها لحكمة، والعلم عند الله تعالى.

---

(١) الألوسي، "روح المعاني"، ٧: ١١٩.

(٢) ينظر: الرازي، محمد بن أبي بكر. "أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل". تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي. (ط١، الرياض: دار عالم الكتب، ١٩٩١م): ٢٢٩.

المطلب الثالث: الحِكم التي لأجلها قد يجيب الله ﷻ بعض دعاء الكافرين

تقدّم تقرير أنّ الله ﷻ قد يستجيب بعض أدعية الكافرين في الدنيا إذا شاء ذلك[١]، ولكن لا يلزم من استجابته لدعائهم حبه لهم أو إعزازه وإكرامه لهم، أو رضاه عن دينهم ومعتقدهم، بل قد يكون ذلك من استدراجهم وتعجيل النعيم لهم في دنياهم ليذوقوا العذاب في الآخرة، فالله ﷻ لا يحب الكافرين ولا يرضى عنهم ولا عن كفرهم.

قال الرازي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٦]. "فقد اختلفوا، فقيل: يجيب الله دعاء المؤمنين ويزيدهم ما طلبوه من فضله، فإن قالوا: تخصيص المؤمنين بإجابة الدعاء هل يدل على أنه تعالى لا يجيب دعاء الكفار؟ قلنا: قال بعضهم: لا يجوز؛ لأن إجابة الدعاء تعظيم، وذلك لا يليق بالكفار، وقيل: يجوز على بعض الوجوه، وفائدة التخصيص أَنّ إجابة دعاء المؤمنين تكون على سبيل التشريف، وإجابة دعاء الكافرين تكون على سبيل الاستدراج"[٢].

---

(١) في المطلب السابق.

(٢) الرازي، "تفسير الرازي"، ٢٧: ٥٩٨.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فليس كل مَن متّعه الله برزق ونصر إما إجابة لدعائه وإما بدون ذلك يكون ممن يحبه الله ويواليه، بل هو سبحانه يرزق المؤمن والكافر والبر والفاجر، وقد يجيب دعاءهم ويعطيهم سؤلهم في الدنيا، ومالهم في الآخرة من خلاق...، ومن هذا الباب من قد يدعو دعاء معتدياً فيه، إما بطلب مالا يصلح أو بالدعاء الذي فيه معصية الله من شرك أو غيره، فإذا حصل بعض غرضه ظن أنّ ذلك دليل على أنّ عمله صالح بمنزلة مَن أملى له وأمده بالمال والبنين فظن أن ذلك مسارعة له في الخيرات، قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦]"[(١)].

وقال ابن القيم: "ليس كل مَن أجاب الله دعاءه يكون راضياً عنه، ولا محباً له، ولا راضياً بفعله فإنه يجيب البر والفاجر، والمؤمن والكافر. وكثير من الناس يدعو دعاء يعتدي فيه، أو يشترط في دعائه، أو يكون مما لا يجوز أن يُسأل، فيحصل له ذلك أو بعضه، فيظن أن عمله صالح مرضيّ لله، ويكون بمنزلة من أملى له وأمد بالمال والبنين، وهو يظن أن الله تعالى يسارع له في الخيرات وقد قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا

(١) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. "اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم". تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل. (ط٧، بيروت: دار عالم الكتب، ١٩٩٩م): ٨٩.

نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ [الأنعام: ٤٤]، فالدعاء قد يكون عبادة فيثاب عليه الداعي، وقد يكون مسألة تقضى به حاجته ويكون مضرة عليه، إما أن يعاقب بما يحصل له، أو تنقص به درجته، فيقضي حاجته ويعاقبه على ما جرأ عليه من إضاعة حقوقه واعتداء حدوده"[١].

والآيات التي دلّت على أن الله تعالى قد يجيب بعض دعوات الكافرين أشارت إلى أنّ ذلك يكون لإقامة الحجة عليهم، أو لإظهار رحمته وفضله ومنته بإغاثة الملهوفين ونجدة المضطرين، ونحو ذلك.

فتبيّن مِن هذا أنّ الله ﷻ إن استجاب لدعاء الكافرين في الدنيا فإنّ ذلك لا يكون تكريماً لهم أو دلالة على رضى الله عنهم، وإنما يكون ذلك فتنةً لهم أو عقوبة، وقد تكون الإجابة خيراً لهم؛ كمن يدعو الله أن يبصِّره بالحق ثم يهتدي بعد ذلك، وهذا مِن صور الاضطرار الذي وعد الله صاحبه بالإجابة، وكذلك إذا أجاب مَن يسأله النجاة حين يقع في مهلكة، وقد تكون الإجابة شرّاً على الكافر، فيُعطى ما يسأل من نعيم الدنيا، ولكن يكون فيه هلاكه، أو يكون ذلك نعيمه المعجّل في الدنيا، وما له في الآخرة مِن خلاق.

---

(١) ابن القيم، محمد بن أبي بكر. "إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان". تحقيق: محمد حامد الفقي. (ط٢، الرياض: مكتبة المعارف، غير محدد سنة الطبع)، ١: ١٣.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: فإنّ دراستي لموضوع (دعاء الكافرين ربّ العالمين في القرآن الكريم)، توصّلت منها **لنتائج** أهمها:

١ – أنّ دعاء الكافرين اللهَ تعالى أكبر دليلٍ على ضعفهم وشدة حاجتهم وافتقارهم لعنايته سبحانه، وإنما كان الكفر منهم ظلماً وعلوّاً جَلَبَ سوءَ العاقبة لهم؛ كما قال ﷻ: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

٢ – أنّ في دعاء الكافرين لربّ العالمين إقراراً منهم بربوبية الله جَلّ وعلا، وهذا الإقرار يفرض عليهم الإقرار بألوهيته؛ إذْ لو كان أحدٌ يستحق العبادة مِن دون الله ويستطيع إجابة دعائهم لَدَعَوهُ، خاصّةً وقت الضراء التي يسألون كشفها!.

٣ – أنّ الكافرين إنما يخلصون لله الدعاء وقت حصول عذاب مفاجئ وسريع، أما حين تعرض لهم صنوف العذاب الدنيوي والابتلاء بأنواع المصائب فإنهم لا يتضرعون إلى الله ولا يدعونه، بل يستمرون في إعراضهم وغفلتهم وغرورهم.

٤ – قد يجيب الله بعض أدعية الكافرين في الدنيا إذا شاء ذلك، لحِكَمٍ يريدها سبحانه، أمّا في الآخرة فلا تجاب لهم دعوة.

٥- أنّ إجابة بعض أدعية الكافرين في الدنيا ليس فيها دليلٌ على حُبِّ الله لهم أو رضاه بكفرهم، وإنما يكون في إجابته لدعائهم فتنةٌ لهم، أو عقوبةٌ، أو نعيمٌ معجّلٌ في الدنيا.

أما التوصيات فهي كالآتي:

١- تناول موضوع: (دعاء الكافرين في السنة النبوية) بالدراسة الموضوعية، وذلك للوقوف على هذا الموضوع من جهة أخرى، وذلك باستعراض ما ورد من أدعية الكافرين المذكورة في السنة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

٢- إدراج موضوع (دعاء الكافرين في القرآن الكريم) ضمن الموضوعات التي تتضمنها الكتب التي تتناول موضوعات القرآن الكريم، وكذا الموسوعات التي جمعت بحوث التفسير الموضوعي؛ إذْ لم أرَ شيئاً منها ذكره، وذلك حسب اطلاعي.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

المصادروالمراجع

أولا: الكتب المطبوعة:

ابن الجزري، محمد بن محمد. "تحبير التيسير في القراءات العشر". المحقق: د. أحمد محمد مفلح القضاة. (ط١، عمّان: دار الفرقان، ٢٠٠٠م).

ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي. "زاد المسير في علم التفسير". (ط٤، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٧م).

ابن القيم، محمد بن أبي بكر. "إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان". تحقيق: محمد حامد الفقي. (ط٢، الرياض: مكتبة المعارف، غير محدد سنة الطبع).

ابن القيم، محمد بن أبي بكر. "طريق الهجرتين وباب السعادتين". (ط٢، القاهرة: دار السلفية، ١٣٩٤هـ).

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. "اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم". تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل. (ط٧، بيروت: دار عالم الكتب، ١٩٩٩م).

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. "مجموع الفتاوى". تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. (ط١، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٩٩٥م).

ابن حنبل، أحمد بن محمد. "مسند الإمام أحمد بن حنبل". تحقيق:

شعيب الأرنؤوط، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي. (ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م".

ابن زنجلة، عبد الرحمن بن محمد. "حجة القراءات" تحقيق: سعيد الأفغاني. (ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، غير محدد لسنة الطبع.

ابن عادل، عمر بن علي الحنبلي. "اللباب في علوم الكتاب". تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م).

ابن عاشور، محمد الطاهر. "التحرير والتنوير". (ط١، تونس: دار سحنون، ١٩٩٧م).

ابن عبدالوهاب، محمد بن عبدالوهاب. "القواعد الأربع"، (وهو مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الأول). تحقيق: عبدالعزيز بن عبد الرحمن السعيد وغيره. (ط١، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، غير محدد لسنة الطبع).

ابن عطية، محمد عبد الحق بن غالب. "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز". تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ).

ابن فارس، أحمد بن فارس. "معجم مقاييس اللغة". تحقيق: عبد السلام محمد هارون. (ط١، القاهرة: دار الفكر، ١٩٧٩م).

ابن كثير، إسماعيل بن عمر. "تفسير القرآن العظيم". (ط٢، دمشق: مكتبة دار الفيحاء، ١٩٩٨م).

ابن منظور، محمد بن مكرم. "لسان العرب". (ط٣، بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ).

أبو السعود، محمد بن محمد. "إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم". (ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١١هـ).

أبو حيان، محمد بن يوسف. "البحر المحيط في التفسير". (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م).

الأزهري، محمد بن أحمد. "تهذيب اللغة". تحقيق: محمد عوض مرعب. (ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م).

الأشقر، عمر بن سليمان. "الجنة والنار". (ط٧، عمّان: دار النفائس للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م).

الألباني، محمد ناصر الدين. "صحيح سنن أبي داود". (ط٢، الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م).

الألباني، محمد ناصر الدين. "صحيح سنن الترمذي". (ط٢، الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م).

الألوسي، محمود أبو الفضل. "روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني". (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م).

البخاري، محمد بن إسماعيل. "صحيح البخاري". (ط٣، بيروت: دار

ابن كثير، ١٩٨٧م).
البغوي، الحسين بن مسعود. "معالم التنزيل في تفسير القرآن". تحقيق: عبد الرزاق المهدي. (ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ).
البقاعي، إبراهيم بن عمر. "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". تحقيق: عبدالرزاق المهدي. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م).
البيضاوي، عبدالله بن عمر. "أنوار التنزيل وأسرار التأويل". (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م).
الترمذي، محمد بن عيسى. "جامع الترمذي". (ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، غير محدد لسنة الطبع).
الخازن، علي بن محمد. "لباب التأويل في معاني التنزيل". تصحيح: محمد علي شاهين. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ).
الخطابي، حمد بن محمد. "شأن الدعاء". تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق. (ط٣، دمشق: دار الثقافة العربية، ١٩٩٢م).
الخطيب، د. موسى الخطيب، بالاشتراك مع د. محمد محمود. "آيات الدعاء في القرآن الكريم- دعاء الصاحين أهل الجنة الأبرار، ويليه دعاء الكافرين الأشرار أهل النار من الإنس والجن".

(ط١، القاهرة: مركز الكتاب للنشر ، ٢٠٠٥م).
الخطيب، عبد الكريم بن يونس. "التفسير القرآني للقرآن". (ط١، القاهرة: دار الفكر العربي، غير محدد لسنة الطبع).
الداني، عثمان بن سعيد. "التيسير في القراءات السبع". تحقيق: اوتو تريزل. (ط٢، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٤م).
الدمياطي، أحمد بن محمد. "إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر". تحقيق: أنس مهرة. (ط٣، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦م).
الرازي، محمد بن أبي بكر. "أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل". تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي. (ط١، الرياض: دار عالم الكتب، ١٩٩١م).
الرازي، محمد بن عمر. "تفسير الرازي". (ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ).
الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد. "المفردات في غريب القرآن". تحقيق: محمد سيد كيلاني. (ط٣، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨١هـ).
رضا، محمد رشيد. "تفسير المنار". (ط١، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م).
الزجاّج، إبراهيم بن السري. "معاني القرآن وإعرابه". تحقيق: عبد الجليل

عبده شلبي، (ط١، بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٨م).

الزمخشري، محمود بن عمرو. "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل" (ط٣، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ).

السعدي، عبدالرحمن بن ناصر. "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان". (ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٢م).

السمرقندي، نصر بن محمد. "بحر العلوم". تحقيق: علي محمد معوّض، وآخرون. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، غير محدد لسنة الطبع).

السمعاني، منصور بن محمد. "تفسير السمعاني". (ط١، المدينة المنورة: دار البخاري، ١٩٩٢م).

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. "الإكليل في استنباط التنزيل". تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية،١٩٨١م).

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن". (ط١، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥م).

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. "العذب النّمِير مِن مجالس الشنقيطيّ في التفسير". تحقيق: خالد بن عثمان السبت. إشراف الشيخ: بكر بن عبد الله أبو زيد. (ط٢، مكة المكرمة:

دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ).

الشوكاني، محمد بن علي. "فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير". (ط١، بيروت: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ١٤١٤هـ).

الطبري، محمد بن جرير. "جامع البيان عن تأويل آي القرآن". (ط٣، القاهرة: ش مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٨م).

العكبري، عبد الله بن الحسين. "التبيان في إعراب القرآن". تحقيق: علي محمد البجاوي. (ط١، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٧٦م).

الفيومي، أحمد بن محمد. "المصباح المنير في غريب الشرح الكبير". (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، غير محدد لسنة الطبع).

القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد. "محاسن التأويل". تحقيق: محمد باسل عيون السود. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ).

القرطبي، محمد بن أحمد. "الجامع لأحكام القرآن". (ط١، القاهرة: دار الحديث، ١٩٩٤م).

القشيري، عبد الكريم بن هوازن. "لطائف الإشارات"، المسمى (تفسير القشيري). تحقيق: إبراهيم البسيوني، (ط٣، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، غير محدد لسنة الطبع).

القيسي، مكي بن أبي طالب. "الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه". تحقيق: مجموعة باحثين في رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي –جامعة الشارقة، بإشراف أ.د: الشاهد البوشيخي. (ط:١، الشارقة: مجموعة بحوث الكتاب والسنة – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ٢٠٠٨م).

الكفوي، أيوب بن موسى. "الكليات". تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري. (ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، غير محدد لسنة الطبع).

الكلبي، محمد بن أحمد. "التسهيل لعلوم التنزيل". تحقيق: محمد سالم هاشم. (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م).

مجمع اللغة العربية، إبراهيم مصطفى، وآخرون. "المعجم الوسيط". (ط١، القاهرة: دار الدعوة، غير محدد لسنة الطبع).

المراغي، أحمد بن مصطفى. "تفسير المراغي". (ط١، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٤٦م).

مسلم، مسلم بن الحجاج. "صحيح مسلم". (ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ).

المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين. "التوقيف على مهمات التعاريف". (ط١، القاهرة: عالم

الكتب، ١٩٩٠م).

النووي، يحيى بن شرف. "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج". (ط٢، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ).

الواحدي، علي بن أحمد. "التفسير البسيط". تحقيق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه. (ط١، الرياض: عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٠هـ).

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، "الموسوعة الفقهية الكويتية". (ط١، الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٧هـ).

ثانياً: رسائل علمية غير مطبوعة:

الإندونيسي، أول الدين يحيى. "آيات الكفر في القرآن الكريم دراسة موضوعية". (بحث مقدم لنيل درجة الماجستير من كلية العلوم الإسلامية بجامعة المدينة العالمية بماليزيا، عام ١٤٣٤هـ).

جهاد محمد بونجا تنجونج. "الدعاء في ضوء الكتاب والسنة". (بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في تخصص الكتاب والسنة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، إشراف الدكتور: العجمي دمنهوري خليفة، عام ١٤٠١هـ).

اللحياني، بهية بنت حامد. "الدعاء في القرآن الكريم أساليبه ومقاصده وأسراره". (بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في تخصص البلاغة والنقد من كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، إشراف الدكتور: يوسف عبدالله الأنصاري، عام ١٤٢٢هـ).

مدني، نور زمان. "الصور البلاغية في الأدعية القرآنية". (بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في تخصص اللغة العربية وآدابها من الجامعة الوطنية للغات الحديثة بإسلام آباد، إشراف الدكتور: كفاية الله همداني، عام ٢٠١١م).

المدهون، روضة بنت سليم. "المفاهيم المستمدة من آيات الدعاء في القرآن الكريم ودلالاتها التربوية". (بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في تخصص أصول التربية الإسلامية من الجامعة الإسلامية بغزّة، إشراف الدكتور: حمدان عبدالله الصوفي، عام ١٤٣٠هـ).

مفيض الرحمن، مرشد عالم. "الأدعية في القرآن الكريم، صيغها وخصائصها ودلالاتها، موازنة بما ورد في السنة النبوية". (بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في تخصص التفسير وعلوم القرآن الكريم من جامعة أم القرى بمكة المكرمة، إشراف الدكتور: عبدالعزيز بن عبدالله الحميدي، عام ١٤١٦هـ).

المهيزع، خلود بنت عبدالرحمن. "الدعاء واحكامه الفقهية". (بحث

مقدم لنيل درجة الماجستير من قسم الفقه بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، عام ١٤٢٤هـ).

Bibliography

First: Published books:

Abu Al-Saud, Mohammed bin Mohammed. "Irshad al-Aql as-Saleem ila Mazaayaa al-Quran al-Karim". (2nd ed., Beirut: Daar Ihyaa at-Turath al-Arabi, 1411H).

Abu Hayyan, Mohammed bin Yusuf. "Al-Bahr al-Muheet fii at-Tafseer." (1st ed., Beirut: Daar al-Kutub al-Ilmiyyat, 1993AD).

Al-Albani, Mohamed Nasiruddin. "Sahih Sunan Abu Dawood." (2nd ed., Riyadh: Dar Al-Ma'aref for Publication and Distribution, 2000AD).

Al-Albani, Mohamed Nasiruddin. "Sahih Sunan Al-Tirmidhi." (2nd ed., Riyadh: Dar Al-Ma'aref for Publication and Distribution, 2000AD).

Al-Ashqar, Omar bin Suleiman. "Al-Jannat wa an-Naar". (7th ed., Amman: Dar Al-Nafa'es for Publication and Distribution, 1998AD).

Al-Azhari, Mohammed bin Ahmed. "Tahdhib al-Lughat". Investigated by: Mohamed Awad Mor'eb. (1st ed., Beirut: Daar Ihyaa at-Turath al-Arabi, 2001AD).

Al-Baghawi, Al-Husein ben Masoud, "Ma'alim at-Tanzeel fii tafseer al-Quran", Investigated by: Abdul-Razaq Al-Mahdi. (1st ed., Beirut: Daar Ihyaa at-Turath al-Arabi, 1420H).

Al-Baidawi, Abdullah bin Omar. "Anwaar at-Tanzeel wa asraar at-Ta'weel" (1st ed., Beirut: Daar al-Kutub al-Ilmiyyat, 2003AD).

Al-Biqa'ie, Ibrahim bin Omar. "Nadhm Al-Dorar fii tanaasub al-A'yaat wa as-Suwar" Investigated by: Abdul-Razzaq Al-Mahdi. (1st ed., Beirut: Daar al-Kutub al-Ilmiyyat, 1995).

Al-Bukhari, Mohammed bin Ismail. "Sahih Al-Bukhari". (3rd ed., Beirut: Dar Ibn Katheer, 1987AD).

Al-Dani, Othman bin Said. "At-Tayseer fii al-Qira'at as-

Sab'i". ". Investigated by: Otto Triesl. (2nd ed., Beirut: Dar Al-Kitab Al-Arabi, 1984AD).

Al-Dimiyati, Ahmed bin Mohammed. "Ethaf al-Fudalai al-Bashar fii al-Qira'at al-Arba' ashar." Investigated by: Anas Mohrah. (3rd ed., Beirut: Daar al-Kutub al-Ilmiyyat, 2006AD).

Al-Fayoumi, Ahmed Mohammed, " Al-Mesbah Al-Moneer Fi Gharib Al-Sharh Al-Kabeer". ((1st ed., 1st ed., Beirut: Daar al-Kutub al-Ilmiyyat, year of publication not specified).

Al-Kafawi, Ayoub ben Mousa. "Al-Kuliyaat". Investigated by: Adnan Darweish& Mohammed Al-Masry. (1st ed., Beirut: Muassasat ar-Risaalat, year of publication not specified).

Al-Kalbi, Mohammed bin Ahmed. "At-Tasheel li oloom at-Tanzeel". Investigated by: Mohammed Salem Hashem. (1st ed., Beirut: Daar al-Kutub al-Ilmiyyat, 1995AD).

Al-Khatib, Abdel-Karim Ben Younis. "At-Tafseer al-Qur'aani li al-Quran". (1st ed., Cairo: Dar al-Fikr Al-Arabi, the year of publication not specified).

Al-Khatib, Dr. Mousa Al-Khatib, in partnership with Dr. Mohamed Mahmoud. "Aayaat ad-Dua fii al-Quran al-Karim – Duau as-Saliheen ahl al-Jannat al-Abraar, wa yalih duau al-Kafireen al-Ashraar ahl an-Naar min al-Ins wa al-Jin." (1st ed., Cairo: The Book Center for Publishing, 2005AD).

Al-Khattabi, Hamad bin Mohammed. "Sha'n Al-Du'aa". Investigated by: Ahmed Yousef Al-Daqqaq. (3rd ed., Damascus: Daar at-Thaqafat al-Arabiyat, 1992AD).

Al-Khazen, Ali Mohammed, "Lobab Al-Ta'weel fii Ma'ani at-Tanzeel". Investigated by: Mohammed Ali Shaheen, (1st ed., Beirut: Daar al-Kutub al-Ilmiyyat,

1415H).
Al-Manawi, Zein Al-Dein Mohammed, named Abdul-Raouf ben Taj Al-A'refeen. " Al-Tawqeef ala Muhimaat at-Ta'areef". (1st ed., Cairo, A'lam al-Kutub, 1990AD)
Al-Maraghi, Ahmed bin Mustafa. "Tafseer Al-Maraghi ". (1st ed., Cairo: Eissa Al-Babi Al-Halabi & Co. Press, 1946AD).
Al-Nawawi, Yahya bin Shraf. "Al-Minhaj Sharh Saheeh Muslim bin Al-Hajaj". (2st ed., Beirut: Daar al-Kutub al-Ilmiyyat, 1392H).
Al-Okbari, Abdullah bin Al-Hussein. "Al-Tebyan fii I'rab al-Quran." Investigated by: Ali Mohammed Al - Bagawi. (1st ed., Cairo: Eissa Al-Babi Al-Halabi & Co. Press, 1976AD).
Alousi, Mahmoud Abou Al-Fadhl. "Ruh al-Ma'ani fii tafseer al-Quran wa as-Sab'h al-Mathaani". (1st ed., Beirut: Daar al-Kutub al-Ilmiyyat, 1994AD).
Al-Qaisi Makky ben Abi-Taleb, "Al-Hidaayat ilaa bulug an-Nihayat fii ilm ma'aani al-Quran wa tafseerihi, wa ahkaamih, wa jumal min funun uloomih". Investigated by some researchers in theses in The Faculty of graduate studies and scientific research supervised by Prof. Al-Shahed Al-Boushekhy (1st ed, Al-Sharjah, Group of Quran and Sunna researches, Faculty of Sharia and Islamic studies, 2008AD).
Al-Qasemi, Mohammed Gamal Al-Dein ben Mohammed "Mahasen Al-Ta'weel". Investigated by: Mohammed Basel Oyoun Al-Soud. (1st ed., Beirut: Daar al-Kutub al-Ilmiyyat, 1418H).
Al-Qurtubi, Muhammad ibn Ahmad. "Al-Jame'e li ah-Kaam al-Quran." (1st ed., Cairo: Dar al-Hadith, 1994AD).

Al-Qusheiry, Abdul-Karim bin Hawazin. "Latae'f Al-Esharart", named (Tafseer Al-Qusayri). Investigated by: Ibrahim Al-Basioni, (3rd ed., Cairo: General Egyptian Book Organization, the year of publication not specified).

Al-Ragheb Al-Asfahani, Hussein bin Mohammed. "Al-Mufradaat fii Gareeb al-Quran." Investigated by: Mohamed Sayed Kilani. (3rd ed., Cairo: Eissa Al-Babi Al-Halabi & Co. Press, 1381H).

Al-Razi, Mohammed bin Abi-Bakr. "Onmuzaj Jaleel fii aselat wa ajwebat an garaib aayi at-Tanzeel." Investigated by: Dr. Abdul-Rahman bin Ibrahim Al - Matroudi. (1st ed., Riyadh: Daar A'lam al-Kutub, 1991AD).

Al-Razi, Mohammed bin Omar. "Tafseer Al-Razi". (3rd ed., Beirut: Daar Ihyah at-Turath al-Arabiyat, 1420 H).

Al-Saadi, Abdul-Rahman bin Nasser. "Tayseer Al-Karim Al-Rahman fii tafseer kalaam Al-Mannan". (1st ed., Beirut: Muassasat ar-Risaalat, 2002AD).

Al-Samaani, Mansour bin Mohammed. "Tafseer Al-Sam'aani " (1st ed., Madina: Dar al-Bukhari, 1992AD).

Al-Samarqandi, Nasr Mohammed, " Bahr al-Uloom". Investigated by: Ali Mohammed Moawad, et al, (1st ed., Beirut: Daar al-Kutub al-Ilmiyat, year of publication not specified).

Al-Shanqeeti, Mohammed Al-Ameen bin Mohammed Al-Mukhtar. "Al-Athb Al-Nameer min Majales Al-Shanqeeti fii Tafseer." Investigated by: Khalid bin Othman Al-Sabt. Supervised by Sheikh: Bakr bin Abdullah Abu Zeid. (2nd ed., Makkah: Dar A'lam Al-Fawaid for Publication and Distribution, 1426H).

Al-Shanqeeti, Mohammed Al-Amin Mohammed ben Al

Mohammed Al-Mokhtar. "Adwau al-Bayan fii I'doh al-Quran bi al-Quran". (1st ed., Beirut, Dar Al-Fekr and Press for Publication and Distribution, 1995).

Al-Shawkani, Mohammed bin Ali. "Fath Al-Qadeer al-Jamih bain fanai ar-Riwaayat wa ad-Diraayat fii ilm tafseer." (1sted., Beirut: Dar Ibn Katheer, Dar Al-Kalem Al-Tayeb, 1414H).

Al-Soyouti, Abdul-Rahman ben Abi-Bakr, "Al-Ekleel fii Istinbaat at-Tanzeel". Investigated by: Seif Al-Dein Abdul-Qader Al-Kateb. (1st ed., Beirut: Daar al-Kutub al-Ilmiyat, 1418H).

Al-Tabari, Mohammed bin Jarir. "Jame'e Al-Bayan an ta'weel aayi al-Quran". (3rd ed., Cairo: Eissa El-Babi El-Halabi & Co., 1968AD).

Al-Tirmidhi, Mohammed bin Essa. "Jame'i Al-Tirmidhi". (1st ed., Beirut: Daar Ihyah at-Turath al-Arabi, the year of publication not specified).

Al-Wahidi, Ali bin Ahmed. "At-Tafseer al-Baseet " Investigated by: Originally investigated in (15) PhD thesis at the University of Imam Muhammad bin Saud, and then reformulated and assorted by a scientific committee of the University. (1st ed., Riyadh: Deanship of Scientific Research at the Islamic University of Imam Muhammad bin Saud, 1430 H).

Al-Zajjaj, Ibrahim ibn Al-Sorri."Ma'aani al-Quran wa I'rabuh". Investigated by: Abdul-Jalil Abdo Shalabi, (1st ed., Beirut: World of Books, 1988AD).

Al-Zamakhshari, Mahmoud bin Amro. "Al-Kashaf an Haqaiq Gawamid at-Tanzeel" (3rd ed., Beirut: Dar al-Kitab al-Arabi, 1407H).

Ibn Abdul-Wahab, Mohammed bin Abdul-Wahab. "Al-Qawaid al-Arba'at" (published within the writings of Sheikh Mohammed bin Abdul-Wahab, Part I).

Investigated by: Abdul-Aziz bin Abdul-Rahman Al-Saeed et al, (1st ed., Riyadh: Imam Mohammed bin Saud University, for the year of publication not specified).

Ibn Adel, Omar bin Ali al-Hanbali. "Al-Lubaab fii Uloom al-Kitab". Investigated by: Adel Ahmed Abdul-Mawjoud, and Ali Muhammed Mua'wwad. (1st ed., Beirut: Daar al-Kutub al-Ilmiyyat, 1997).

Ibn al-Jawzi, Abdul-Rahman bin Ali. "Zad Al-Moseer fii ilm aTafseer " 4th ed., Beirut: al-Maktab al-Islaami, 1987AD.).

Ibn al-Jazari, Muhammad ibn Muhammad. "Tahbir Al-Taiseer fii al-Qira'at al-Ashri." Investigated by: Dr. Ahmed Mohamed Mofleh Al-Qodat. (1st ed., Amman: Dar al-Furqan, 2000AD.).

Ibn al-Qayyim, Muhammad ibn Abi Bakr. "Eghathat Al-Lahfan Min Masa'id as-Shaytan ". Investigated by: Mohammed Hamid Al-Feqi. (2nd ed., Riyadh: Al-Ma'aref Bookshop, Year of publication not specified).

Ibn al-Qayyim, Muhammad ibn Abi Bakr. "Tareeq al-Hijratain Wa baab as-Sa'aadatain" (2nd ed., Cairo: Dar Al Salafiyya, 1394 AH).

Ibn Ashour, Mohamed Al-Taher. "Al-Tahrir wa Al-Tanweer". (1st ed., Tunisia: Dar Sahnoun, 1997AD).

Ibn Attia, Mohammed Abdul-Haq bin Ghaleb. "Al-Moharar Al-Wajeez fii tafseer al-Kitab Al-Aziz." Investigated by: Abdul-Salam Abdul -Shafi Mohammed. (1st ed., Beirut: Daar al-Kutub al-Ilmiyat, 1422 AH).

Ibn Fares, Ahmed bin Fares. "Mu'jam al-Maqaayis al-Lugat". Investigated by: Abdel-Salam Mohamed Haroun. (1st ed., Cairo: Dar al-Fikr, 1979AD).

Ibn Hanbal, Ahmed bin Mohammed. "Musnad Imam

Ahmad bin Hanbal". Investigated by: Shu'aib Al-Arna'oot, et al., Supervised by: Dr. Abdullah bin Abdul-Mohsen Al-Turki. (1st ed., Beirut: Muassasat ar-Risaalat, 2001AD).

Ibn Katheer, Ismail bin Omar. "Tafseer al-Quran al-Adhim". (2nd ed., Damascus:Maktabat Dar Al-Fayhaa, 1998AD).

Ibn Mandthoor, Mohammed bin Makram. "Lisan Al-Arab ". (3rd ed., Beirut: Dar Sader, 1414 AH).

Ibn Taymiyah, Ahmad ibn Abdul-Halim. " Majmou al-Fataawa". Investigated by: Abdul-Rahman bin Mohammed bin Qasem. (1st ed., Madinah: Mujamaa al-Malik Fahd li tiba'at al-Mushaf as-Shareef, 1995AD).

Ibn Taymiyah, Ahmad ibn Abdul-Halim. "Iqtidou as-Siraat al-Mustaqeem li mukhalafat ashaab al-Jahim ." Investigated by: Nasser Abdul-Karim Al-Aql. (7th ed.,, Beirut: Dar A'lam Al-Kotob, 1999AD).

Ibn Zanjalah, Abdul-Rahman bin Mohammed. "Ujat al-Qira'at" Investigated by: Said Al-Afghani. (1st ed., Beirut: Muassasat ar-Risaalat, the year of publication not specified).

Majma' al-Lughat al-Arabiyat, Ibrahim Mostafa et al. " Mu'jam al-Waseet". (1st ed.Cairo: Daar ad-Da'wat, year of publication not specified).

Ministry of Endowment and Islamic Affairs in Kuwait, "Al-Mawsu'at al-Fiqhiyat al-Kuwaitiyat" (1st ed., Kuwait: Ministry of Endowment and Islamic Affairs, 1427H).

Muslim, Muslim bin Al-Hajjaj. "Sahih Muslim". (3rd ed., Beirut: House of Revival of Arab Heritage, 1420 H).

Redha, Mohamed Rashid. "Tafseer Al-Manar". (1st ed., Cairo: General Egyptian Book Organization, 1990AD).

Second: Non-Published theses:

Al-Indoneisi, Awal Al-Deen Yahya. "Aayaat al-Kufr fii al-Quran al-Karim, Diraasatun Maoduiyat". (Research submitted for a master's degree from the Faculty of Islamic Sciences, Madinah International University, Malaysia, 1434H).

Al-Lehyani, Bahia bint Hamid. "Ad-Duau fii Dou al-Kitab wa as-Sunnah." (Research submitted for master degree in the field of rhetoric and criticism from the Faculty of Arabic Language, Umm Al-Qura University, Makkah, supervised by Prof. Yusuf Abdullah Al-Ansari, in 1422 H).

Al-Madhoun, Rawdah Bent Saleem. "Al-Mafaahim al-Mustamadat min Aayaat ad-Dua fii al-Quran al-Karim wa dilaalaatuha at-Tarbawiyat". (Research submitted for master degree in the specialization of Islamic education Fundamentals from the Islamic University in Gaza, supervised by of Prof.: Hamdan Abdullah Al-Sufi, in 1430H).

Al-Muhaizih, Kholoud bint Abdul-Rahman. "Ad-Duau wa ahkaamuh al-Fiqhiyat ". (Research submitted for master degree from the Department of Jurisprudence (Fiqh) at the Faculty of Sharia, Imam Muhammad bin Saud Islamic University in Riyadh, in 1424H).

Jihad Mohammed Bounja Tenguing. "Ad-Duau fii Dou al-Kitab wa as-Sunnah". (Research submitted for master degree in the specialization of Quran and Sunnah at Umm Al-Qura University in Makkah, supervised by Prof.: Al-Ajmi Damanhuri Khalifa, 1401H).

Madani, Nour Zaman. "A-Suwar Al-Balaagiyat fii al-Ad'iyat al-Qur'aniyat". (PhD thesis in the specialization of Arabic language and literature from the National University of Modern Languages in

Islamabad, supervised by Prof.: Kifayatullah Hamdani, 2011AD).

Mafaid Al-Rahman, Morshed A'lem. "Al-Adiyat fii al-Quran al-Karim, Siyaguha wa khasoisuha, wa dilaalatuha, Muwazanat bima warada fii as-Sunnah an-Nabawiyat." (Research submitted for master degree in the field of interpretation and the sciences of the Quran from the University of Umm Al-Qura in Makkah, supervised by Prof.: Abdul-Aziz bin Abdullah Al-Hamidi, in 1416H).

Al-Soyouti, Abdul-Rahman bin Abi-Bakr. " Mu'jam Maqaleed al-Uloom fii al-Hudud wa ar-Rusoom". Investigated by: Professor Muhammad Ibrahim Obada. (1^{st} . ed., Cairo: Maktabat al-A'daab, 2004).

The contents of the issue

Publication Rules at the Journal (*)

- The research should be new and must have not been published before.
- It should be genuine, innovative and informative.
- It should not been excerpted from a previous published works of the researcher.
- It should comply with the standard academic research rules and its methodology.
- It should include the following:
  - Title page in Arabic.
  - Title page in English.
  - An abstract in Arabic.
  - An abstract in English.
  - Introduction.
  - Body of the research.
  - A conclusion that includes the research findings and recommendations.
  - Bibliography in Arabic.
  - Transliteration of Arabic bibliography in Latin alphabet on a separate list.
  - Necessary appendices (if any).
- If the research is published in paper form (hardcopy), the researcher will be given one free copy of the journal's issue in which his work was published and (10) copies excerpted from his research paper.
- In case the research is approved for publication, the journal assumes all of its copyrights and reserves the right to republish it in a hard or soft copy, and it also have the right to include it in a local and global databases with or without compensation, and without having to obtain the researcher's permission.
- The researcher shall not republish his research which has been accepted for publication in the journal in any other publishing channel without a prior written permission from the editor-in-chief.
- The style of documentation adopted in the journal is Chicago style.

(*) These general rules are explained in detail in the journal's website: http://journals.iu.edu.sa/ILS/index.html

Paper version

Filed at the King Fahd National Library No. 8736/1439 and the date of 17/09/1439 AH

International serial number of periodicals (ISSN) 7898-1658

Online version

Filed at the King Fahd National Library No. 8738/1439 and the date of 17/09/1439 AH

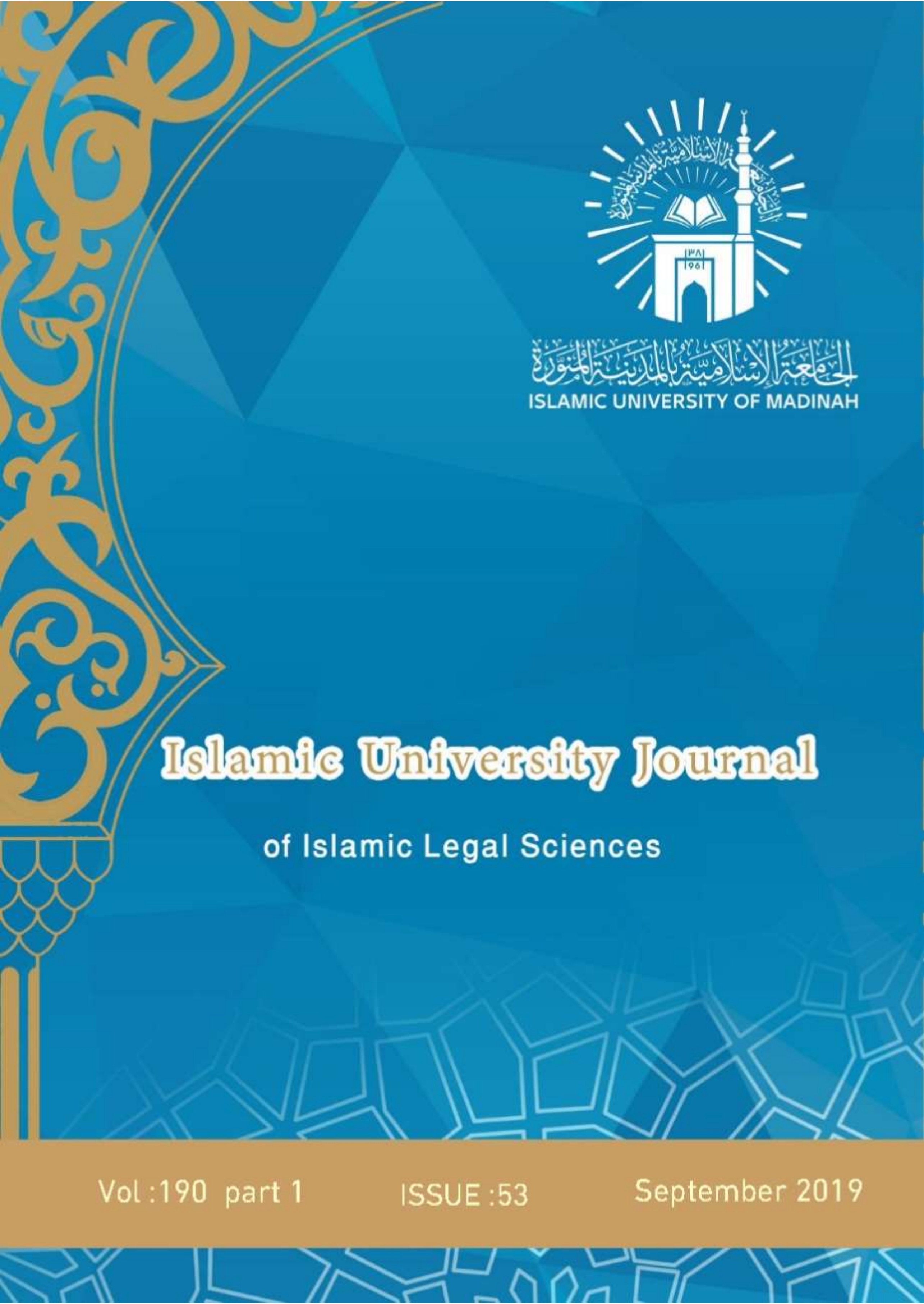
International Serial Number of Periodicals (ISSN) 7901-1658

the journal's website

http://journals.iu.edu.sa/ILS/index.html

The papers are sent with the name of the Editor - in – Chief of the Journal to this E-mail address Es.journalils@iu.edu.sa


بسم الله الرحمن الرحيم


الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
ISLAMIC UNIVERSITY OF MADINAH
Islamic University Journal
of Islamic Legal Sciences
Vol :190 part 1
ISSUE :53
September 2019